جذور الوهم

سعد الياسري

جذور الوهم

(ملاحظات حول الديانات الإبراهيمية)

مقالات

جمعه **Q8 El7ad**

من موقع دروب

www.doroob.com

توطئة

حين بشّرَنا (نيتشه) : **(لقد مات جميع الآلهة .. فلم يعد لنا من أم لٍ إلاّ ظهور الإنسان المتفوّق)** (1) ، كان يريد – على الأغلب – موت الفكرة الدينية بما تفرضه على البشريّة من وهم إنساني مصطنع . و أيضًا ؛ التبشير بمبادئ أخلاقيّة جديدةٍ قائمة أساسًا على نبذ القيم التقليديّة أو ما يسميه هو بـ (أخلاق الدخلاء | الضعفاء) المُفرّخة للأصنام والمُهيّجة للمسكنة ، والواجب تحطيمها عبر الإنسان بمعناه القادر على السمو والرّاغب فيه . و عن صفات هذا الإنسان و مزاياه حديث طويل يقودنا إلى الجدل حول التشويه و التحريف الذي مارسته (إليزابيث) أخت (نيتشه) في بعض كتبه و آرائه بعد وفاته ، وكيف اقتنص النّازيّونَ تلك الفرصة و وظّفوها ببراعة .. إلخ و ليس هذا محلّه بالطبع (2) .

سأناقش في هذا المقال عبر حلقات خمس بعض الأفكار الغريبة الواردة في النّصوص الدينية المُعتبَرة للأديان ذات الصّلة المباشرة بالأصنام – آنفة الذكر – وبكل مآسي البشرية من تمهيد طريق الخرافة إلى تعبيد طريق الدجل الفكريّ . الأديان التي جعلت من قتلِ الإنسان لأخيه الإنسان قربةً إلى خالق الإنسان بشكل يوحي – للأريب طبعًا – بأنّ العملية كلّها محض عبث . الأديان المتسبّبة تعاليمُها بتمزيق ثياب التاريخ ، و التناوب على هتك عذريته على مدى أكثر من 4000 سنة حتّى توسّعت فوّهته وصار ولوج الفيلة من خلالها أمرًا معقولاً . الأديان التي سرقتْ كلّ ما يمكن أن يولّد بهجةً حقيقيّةً غيرَ ملوّثة بدسم التسامح المنافق القائم على الريبة من الآخر لمجرد اختلافه .. حتّى وصلنا – أقصدُ مشغّلي العقول لا المغفّلين – إلى مرحلةٍ مرعبةٍ أقرب إلى (الفوبيا) .. فوبيا المحبّة ، وكأنّي أستحضر صدمة (الماغوط) : **(الإرهاب لم يترك ليَ فرصةً لأحبَّ أحدًا .. حتّى الله)** (3) .

ومع ذلك فأنا أكنّ كامل الاعتزاز لكل ممارسي العبادات في حيّزها الروحانيّ (لا) الدعويّ والتبشيريّ . وكلّي تقدير لنوايا الأنبياء أصحاب تلك الرسالات ؛ حين (ابتدعوا) تلك الفكرة صارمين مبتغين الإصلاح .. ثمّ تسرّبت المسبحة من بين أيديهم بعد ذلك . إنّما يجب أن نقول بأنّ الأخطاء التي مورست باسم الإله وباسم الدين و عبر الأنبياء أنفسهم ليست عابرةً ، والجرائم الدمويّة التي رافقت تلك الأديان ليست حفلة معجّناتٍ باريسيّة يمكن التهاون في شأنها !! . وعليه أنا أتناول الأمور كمسبّبات من حيث نتائجها الوخيمة ، كما أتناول أيّة فكرة أو مدرسة فلسفية بالنقد أو التأييد أو عدم الاكتراث .. إذ لستُ رجلاً مهووسًا لا غاية له سوى مهاجمة الأديان ، خاصّة وأنّي أدعو – كآخرين – و بحماسة مفرطة إلى ثورة مراجعةٍ دينيّةٍ يتمّ عبرها تحويل الأديان إلى مسارها الأصليّ ؛ أي الروحانيّ التّعبدي مبتعدةً عن أيّ نشاطٍ تشريعيٍّ أو تنفيذيٍّ أو قضائيٍّ قد يؤهّلها إلى البروز اجتماعيًّا على حساب الدولة المؤسّساتيّة الحديثة . وهذا وحده يكفل لنا – كأحرار – الطلاق البائن بين الدين السياسي و المجتمع العصري .

تنويه :

سأقوم خلال حلقات هذا المقال المطوّل بالاقتباسات المباشرة من (التوراة) بوصفها الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم (ترجمة كتاب الحياة) . و من (الإنجيل) عبر الأسفار القانونية الأربعة الأولى في العهد الجديد (ترجمة كتاب الحياة) . و من (القرآن) .

إبراهيم

مدخل :

سأتجاوز مرحلة الإبادة الجماعية بالطوفان في عصر نوح (= النّائي) ، و أبدأ من حيث يعتبره المؤرّخون جذر الديانات التوحيديّة الكُبرى . و الج ذر في اللّغة هو الأصل و الامتداد و المصدر . وفي الحساب هو عددٌ يُضرب بنفسه ليعطي آخرَ . أمّا حين نتحدّث عن التوحيد ؛ فينبغي أن يُفهم بأنّنا نتحدّث عن (إبراهيم بن تارح | آزر) بوصفه مؤسّس أوّل ديانة متكاملة الشروط بشّرت بإلهٍ واحدٍ ، وفرّخت الديانات الثلاث (اليهودية | المسيحية | الإسلام). على أنّني سأربأ بنفسي عن الجدل القديم والخالد حول حقيقة وجود هذا الرجل من عدمه .. خاصّة و أنّي أميل في هذا المجال إلى رأي (طه حسين) في أنّ العملية لا تخرج عن كونها حيلة براغماتية كانت الأديان تحتاجها ، فبذرتها اليهودية و أ جازها الإسلام (4) . لكنني سأتعامل مع وجوده على أنّه أمر واقع .

أور :

لا ريب أنّ لفكرة التّوحيد قبل 4000 سنة بريقًا أخّاذًا ، لا يستشعره إلاّ صاحب حساسيّة عالية ، وهو ما ينطبق على إبراهيم (= أبو الجمهور) المولود في (أور السّومرية) (محافظة ذي قار جنوبي العراق حاليًا) بحدود 1900 ق. مـ و الذي كان ممتلئًا بالأسئلة الكبرى من نوع : **(كيف يمكن أن يعيش قوم "أور" في مثل ذلك الضلال والجهل ؟ كل آمال حياتهم موضوعةٌ في تماثيلَ يصنعها أبوه و أخواه "ناحور | هاران" بأيديهم من طينٍ وحجرٍ .. !؟)** (5) وبعد تلك التأمّلات كان لا بدّ من إشراقة ما .. فكانت مراحل المنطق الديكارتي حيث انبهار (إبراهيم) بالنجم والقمر والشّمس وما إلى ذلك . ثم مرحلة الفكر الثوري بتحطيم الأصنام و قصّته مع (النمرود) و ما تبعها من عقوباتٍ و أحداثٍ لا تُذكر تاريخيًّا سوى في مصدرين هما (التلمود) (6) و (القرآن) (7) . وبعدها اهتدى إلى مفهوم الإله الواحد الواضح .

الذبح :

غير أنّ شهر العسل لم يدُم طويلاً حيث تفجّرت أوّلُ أزمة فعلية بين الإله الدّيني و عبده الإنسان الموحّد حين أُمر (إبراهيم) بنحر ابنه – الذي يحبّه – قربانًا (اليهودية و المسيحية تقولان بأنّه إسحق (= ضحّاك) . الإسلام يقول بأنّه إسماعيل (= يسمع الله) . الأكيد لدينا أنّه أحدهما) . وعلى طريقة أفلام الميلودراما الهندية و في الثّواني الأخيرة قبل تنفيذ حكم النّحر يصرخ الملاك (جبرائيل على الأرجح) : **توقّفْ .. توقّفْ !** ولعلّ الفرنسي الرائع (Laurent de La Hyre) قد صوّر تلك اللحظة بشكل مبهر في لوحته الأنيقة (Abraham Sacrificing Isaac) والتي أنجزها في عام 1650 .

و نحن هنا نتساءل ما وجه الفائدة حين يُمتحن هذا الموحّد بل المؤسّس للتوحيد – إن جاز القول – في ولدهِ ؟ وكيف يمكن أن يشكّ إلهٌ قادرٌ و خالقٌ لكلّ شيءٍ بصد يقه ورسوله و خليله المقرّب .. أو بخفايا سريرته ؟ وشكّ الإلهِ تؤكّده الوقائع هنا .. حيث نقرأ في الحادثة التوراتيّة : **(وَمَدَّ إِبْرَاهِيمُ يَدَهُ وَتَنَاوَلَ السِّكِّينَ لِيَذْبَحَ ابْنَهُ . فَنَادَاهُ مَلاَكُ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً: إِبْرَاهِيمُ، إِبْرَاهِيمُ فَأَجَابَ: نَعَمْ. فَقَالَ: لاَ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الصَّبِيِّ وَلاَ تُوْقِعْ بِهِ ضُرّاً لأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّكَ تَخَافُ اللهَ وَلَمْ تَمْنَع ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي)** [تكوين . 22 : 10-12] . و أيضًا في الحادثة القرآنيّة : **(فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاء الْمُبِينُ)** [الصّافّات : 103-106] .

وهذا يعني أنّه كان ينتظر ردّ الفعل كأيّ كائن لا قدرة له عل ى استنباط الغيب .. لأنّه لو كان يعلم النتيجة لانتفت الحاجة إلى هذا المشهد الدرامي المؤثّر .

أمّا الطريف في الأمر فإنّ الرواية الإسلاميّة تجعل من الفتى و أبيه شركاء في هذه الحفلة الدمويّة : **(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)** [الصّافّات : 102] .

فيما نجد قصّة (التوراة) أكثر غموضًا بالنسبة للفتى الذي لم يكن يفهم تمامًا ما الذي يجري : **(وَقَالَ إِسْحقُ لإِبْرَاهِيمَ أَبِيهِ : يَا أَبي . فَأَجَابَهُ: نَعَمْ يَا بُنَيَّ . فَسَأَلَهُ: هَا هِيَ النَّارُ وَالْحَطَبُ،وَلَكِنْ أَيْنَ خَرُوفُ الْمُحْرَقَةِ؟ . فَرَدَّ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ اللهَ يُدَبِّرُ لِنَفْسِهِ الْخَرُوفَ لِلْمُحْرَقَةِ يَا ابْنِي . وَتَابَعَا مَسِيرَهُمَا مَعاً)** [تكوين . 22 : 7-8] .

تساؤلات أخلاقيّة :

إنّ شعوري بالخيبة حيال النظام الأخلاقي الهندسي العجائبي الذي وضعه (سبينوزا) في كتابه (علم الأخلاق) عام 1665 مـ ، و الذي أحسستُ أثناء قراءته بأنّي أمام (إقليدس) الجامد بزوايِاه و براهينه ومسلّماته .. هو نفس شعوري تجاه المسحة الطبقيّة للإله الإبراهيميّ ؛ و التي تتّضح في تناول (التوراة) لعلاقة (إبراهيم) بزوجاته سارَة (= الأميرة | المتوّجة | السَّرية) و هاجَر (= المهاجرة | المسافرة | الأجيرة) و قطورة (= ؟) ، والإشارة إلى (هاجَر) بأنّها (عبدة | أجيرة مِصريّة) بطريقة تدلّل على أنّها شتيمة . حيث أنّ إذلالها بشكل مستمر كان جزءًا من أولويّات (سارَة) على ما يبدو . ثمّ أنّ شخصيّة (إبراهيم) تدعو إلى الاستغراب ؛ فهو يفتقر إلى الحسم العائلي .. إذ طرد (هاجَر) لأنّ الرّب التوراتي – الذي يتدخّ ل في المشاكل الأسريّة بين الضّرّتين – أمره بمنطق الإقطاعي (ابن الباشا) :

(وَرَأَتْ سَارَةُ أَنَّ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي أَنْجَبَتْهُ لإِبْرَاهِيمَ يَسْخَرُ مِن ابْنِهَا إِسْحقَ، فَقَالَتْ لإِبْرَ اهِيمَ : اطْرُدْ هَذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، فَإِنَّ ابْنَ الْجَارِيَةِ لَنْ يَرِثَ مَعَ ابْنِي إِسْحقَ . فَقَبُحَ هَذَا الْقَوْلُ فِي نَفْسِ إِبْرَ اهِيمَ مِنْ أَجْلِ ابْنِهِ . فَقَال اللهُ لَهُ : لاَ يَسُوءُ فِي نَفْسِكَ أَمْرُ الصَّبِيِّ أَوْ أَمْرُ جَارِيَتِكَ، وَاسْمَعْ لِكَلاَمِ سَارَةَ فِي كُلِّ مَا تُشِيرُ بِهِ عَلَيْكَ لأَنَّهُ بِإِسْحقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ. وَسَأُقِيمُ مِن ابْنِ الْجَارِيَةِ أُمَّةً أَيْضاً لأَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ) [تكوين . 21 : 9–13] . ونستطيع أن نرى هنا الكم الهائل من الفوقيّة التي يمارسها الربّ .

أمّا أشدّ ما أستهجنه في سلوك (إبراهيم) التوراتيّ هو التكسّب من خلال زوجته (سارَة) بالإدّعاء أنّها أخته .. كي ينجو بنفسه وبها : **(وَعَمَّتْ تِلْكَ الْبِلاَدَ مَجَاعَةٌ، فَانْحَدَرَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ لِيَتَغَرَّبَ فِيهَا لأَنَّ الْمَجَاعَةَ كَانَتْ شَدِيدَةً فِي الأَرْضِ. وَمَا إِنِ اقْتَرَبَ مِنْ تُخُومِ مِصْرَ حَتَّى قَالَ لِزَوْجَتِهِ سَارَايَ : أَنَا أَعْرِفُ أَنَّكِ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ، فَمَا إِنْ يَرَاكِ الْمِصْرِيُّونَ حَتَّى يَقُولُوا : هَذِهِ هِيَ زَوْجَتُهُ فَيَقْتُلُونَنِي وَيَسْتَحْيُونَكِ. لِذَلِكَ قُولِي إِنَّكِ أُخْتِي، فَيُحْسِنُوا مُعَامَلَتِي مِنْ أَجْلِكِ وَتَنْجُوَ حَيَاتِي بِفَضْلِكِ . وَلَمَّا اقْتَرَبَ أَبْرَامُ مِنْ مِصْرَ اسْتَرْعَى جَمَالُ سَارَايَ أَنْظَارَ الْمِصْرِيِّينَ، وَشَاهَدَهَا أَيْضاً رُؤَسَاءُ فِرْعَوْنَ فَأَشَادُوا بِهَا أَمَامَهُ . فَأُخِذَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ. فَأَحْسَنَ إِلَى أَبْرَامَ بِسَبَبِهَا وَأَجْزَلَ لَهُ الْعَطَاءَ مِنَ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَالْحَمِيرِ وَالْعَبِيدِ وَالإِمَاءِ وَالأُتُنِ وَالْجِمَالِ)** [تكوين . 12 : 10–16] .

خاتمة :

في ختام هذا المبحث أودّ التذكير بأنّي لم أتجشّم عناء الكتابة و البحث عن هذا الأمر لأنه يعجبني أو لا يعجبني ، بل لأنّه أضرّ ويضرّ بالكوكب كلّ يومٍ .. فحالي مع (الدين) كحال شيخي (المعرّي) مع (الدُنيا) حين قال :

وهل تظفر الدُنيا عليّ بمنّةٍ * وما ساء فيها النّفسَ أضعافُ ما سرّا ؟!**

موسی

مدخل :

وِلد (موسى) (= المُنتشَل من الماء | طفل الماء) في (مِصر) بحدود عام 1500 ق.مـ . و على الرغم من أنّ تأكيد وجوده أصلاً أمر غاية في الصّعوبة كما هو الحال مع (إبراهيم) لكنّني سأتعامل معه هو الآخر على أنّه واقع . و أيضًا ؛ على الرغم من أنّ قصّته ملفتةٌ للغاية ، و الآراء التي جادلت في أسطورته و ولادته وفي كونه مصريًّا لا عِبرانيًّا أكثر إثارة من أن تُهمل (8) ، لكنني سأدخل فيما يهمّنا هنا وهي مرحلة تأسيس الدين الموسوي (اليهودية) .

يقول (كانط) في رسالته (الدين في حدود العقل الخالص) : **(إنّ أيّ كتابٍ من الكتب المقدّسة ؛ وكلّ ما [ينزل] به الوحي ، يجب أن يُحكم عليه بما له من قيمة أخلاقيّة ، ولا ينبغي أن يكون هو نفسه الحاكم أو القاضي الذي يرجع إليه القانون الأخلاقي)** (9) .

و من الواضح هنا أنّ إخضاع (التوراة) (= التوجيه | التعليم) إلى رأي (كانط) سيجبرنا على الاستغناء عن أغلبها وذلك للقدر الهائل من التجاوزات الأخلاقية التي لا يقبلها ناموس و لا عرف ولا فكر سويّ ، والتي تحتاج إلى أن تُسبق بإشارة **(+18)** للدلالة على حقيقتها المرعبة .

موسى .. كونه قاتلاً :

الغريب أنّ (التوراة) تكتفي بلمح ات بسيطة عن ولادة (موسى) و قذفه في الماء و انقاذه ، ثم تقفز إلى مرحلة النضج والجريمة .. دون أن تدوّن لنا تاريخ الرجل و محطات حياته المهمّة قبل اقترافه الجريمة لذا سيضطر المرء الرّاغب في معرفة تفاصيل أكثر إلى الاعتماد على قصص (التلمود) في هذا الشّأن (10) .

عمومًا ؛ بدأ (موسى) حياته بجريمة قتل من الدرجة الأولى اقترفها بذكاء احترافيّ . إذ نقرأ في (التوراة) : **(وَحدَثَ بَعْدَ أَنْ كَبُرَ مُوسَى أَنَّهُ ذَهَبَ لِيَفْتَقِدَ إِخْوَتَهُ الْعِبْرَانِيِّينَ وَيَشْهَدَ مَشَقَّتَهُمْ، فَلَمَحَ رَجُلاً مِصْرِيّاً يَضْ رِبُ رَجُلاً عِبْرَانِيّاً، فَتَلَفَّتَ حَوْلَهُ، وَإِذْ لَمْ يَجِدْ أَحَداً هُنَاكَ قَتَلَ الْمِصْرِيَّ وَطَمَرَهُ فِي الرَّمْلِ)** [خروج . 2 : 11–12] . و في (القرآن) : **(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَ ا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ)** [الأنعام : 74–78] .

من خلال النصّ التوراتيّ نلمس مقدارًا من الخبث غيرَ متوفّرٍ في النسخّة القرآنية للقصّة . إذ يظهر (موسى) في (التوراة) على أنّه رجل مزاجيّ عصبيّ يجيد المكر و يفكّر في عاقبة فعلته ؛ حيث أنّه نظر يمينًا وشمالاً وتأكّد من عدم وجود أحدٍ فقام بالقتل ، واستمر في تقصّده حين أخفى آثار جريمته بطمْر جثمان ضحيّته في الرمل . أمّا في (القرآن) فإنّ العصبيّة غلبته على أمره لبرهةٍ وتصرّف منطلقًا من منطقة اللاّوعي .. وحين أحسّ بفداحة جريمته ؛ علّل الأمر بعمل وغَواية الشّيطان .. وهذا الشيطان سيكون الشمّاعة التي تُعلّق عليها كلّ الكوارث البشريّة في الأعوام اللاّحقة و حتّى اللحظة .

و أيضًا ، من خلال هذه البداية غير المشجّعة سيقوم (يهوه) (= اللّه) صاحب المزاج الصّعب بجرائمَ مرعبةٍ بالتوافق طبعًا مع كليمه ونبيّه (موسى) ، وذلك بعد أن يهرب الأخير و يلتقي بـ كاهن مِدْيَن (= رعوئيل = يثرون = شُعيب) الذي كان له أبلغ الأثر في تهيئة أفكاره وترتيبها .. فيتزوّج من ابنته (صفّورة | صفّوريّة) التي ستُنجب له (جِرشوم) (= غريب) و (إليعازر) (= عون اللّه) .

سِفر الخروج .. كونه استعراضًا للقوّة :

لم أقرأ في حياتي كتابًا أكثر إساءة إلى (اللّه) من (سِفر الخروج) بوصفه برنامجاً لأسلحة الدّمار الشّامل السّماويّة المسلّطة على الأرض وساكنيها . فبعيدًا عن مسرحيّة (الخروج) و (التِّيه) كتسمية وحدث لم يكشف العِلم الحديث ولا أكثر خبراء الآركيولوجيا نبوغًا أيّ فخّارةٍ أو ضلعٍ بشريٍّ أو حتّى وتدٍ لخيمةٍ أو أثرٍ لشَعبٍ يُقدّر تعداده في تلك الفترة بمئات الآلاف و يُفترض أنّه عاش لأربعين سنةً تائهًا في صحراء (سيناء) . و أنصح في هذا المجال الإطّلاع على الكتاب المهم (The Bible Unearthed) لمولّفيه عالِميْ الآثار الإسرائيلي (Israel Finkelstein) و الأميركي المقيم في بلجيكا (Neil Asher Silberman) ، و الذي تيسّر لي الحصول على بعض فصوله مترجمةً إلى العربيّة ، كما أنصح بالفيلم الوثائقي الذي يحمل ذات الاسم (The Bible Unearthed) و الذي بثّته قناة (History Channel) حيث قدّم مؤلّفا الكتاب تحليلاً علميًّا و منطقيًّا حول أسفار (التوراة) و (العهد القديم) ككل .. و خلُصا إلى استحالة وقوع تلك الأحداث على تلك الصّيغة المذكورة .

على أيّة حال ، بعيدًا عن كلّ هذا و قريبًا من (الخروج) كسِفر ، أقول بأنّ العاقلَ يُصعق بهذا الرّب الذي يَنسى مواثيقه : **(وَبَعْدَ مُرُورِ حِقْبَةٍ طَوِيلَةٍ مَاتَ مَلِكُ مِصْرَ. وَارْتَفَعَ أَنِينُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَصُرَاخُهُمْ مِنْ وَطْأَةِ الْعُبُودِيَّةِ، وَصَعِدَ إِلَى اللهِ . فَأَصْغَى اللهُ إِلَى أَنِينِهِمْ، وَتَذَكَّرَ مِيثَاقَهُ مَعَ إِبرَاهِيمَ وَإِسْحقَ وَيَعْقُوبَ . نَظَرَ اللهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرَقَّ لِحَالِهِمْ)** [خروج . 2 : 23–25] . و الرّب الذي لا يريد لـ (فرعون) (= لقب حاكم مِصر) النجاة والقبول بخروج بني إسرائيل : **(وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى : حَالَمَا تَرْجِعُ إِلَى مِصْرَ، تَذَكَّرْ أَنْ تُجْرِيَ أَمَامَ فِرْعَوْنَ جَمِيعَ الْعَجَائِبِ الَّتِي مَ نَحْتُكَ الْقُوَّةَ عَلَى إِجْرَائِهَا، وَلَكِنَّنِي سَأُقَسِّي قَلْبَهُ لِكَيْ لاَ يُطْلِقَ الشَّعْبَ)** [خروج . 4 : 21–23] . و الرّب الذي يسخّر الهلاك والحشرات والجوع و الرعب و موت الأبكار و إهلاك الماشية لعقاب أبرياء لاذنب لهم سوى لأنّ حاكمهم عنيد بسبب مشيئة الرّب المسبّقة بعناده ! !

و الرّب الذي يقتل و يأمر بقتل عباده العاملين لكسب الرزق في يوم السّبت : **(كُلُّ مَنْ يَقُومُ بعَمَلٍ فِي يَوْمِ السَّبْتِ يُقْتَلُ حَتْماً)** [خروج . 31 : 15] .

و من جملة ما يمكن قراءته في هذا السِّفْر هو أخبار تلك المجزرة التي راح ضحيّتها نحو ثلاثة آلاف رجل ممّن اتّخذوا العجل إلهاً و مارسوا المجون في غياب (موسى) ، و لمّا عاد إلى المخيّم في مساء أحد الأيام حاملاً لوحيْ الشّهادة أبصر مجونهم ، فغضب و حطّم اللوحين الذيْن كُتبا بخطّ (الله) شخصيًّا .. في مشهد استلهمه الهولندي الخالد (Rembrandt) في رسم لوحته الشّهيرة (Moses Smashing The Tablets Of The Law) و التي أنجزها في عام 1659 .

و الغرابة لا تكمن في قتل هذا العدد من الشّعب بل في أنّ العقاب حلّ بغير جارمه .. إذ نقرأ في (التوراة) : **(وَخَاطَبَ مُوسَى هَرُونَ : مَاذَا فَعَلَ بِكَ هَذَا الشَّعْبُ حَتَّى جَلَبْتَ عَلَيْهِ هَذِهِ الْخَطِيئَةَ الْعَظِيمَةَ ؟ فَأَجَابَ هَرُونُ : لاَ يَحْتَدِمْ غَضَبُ سَيِّدِي . إِنَّكَ تَعْرِفُ شَرَّ هَذَا الشَّعْبِ. لَقَدْ قَالُوا لِي : اصْنَعْ لَنَا إِلَهاً يَتَقَدَّمُنَا فِي مَسِيرِنَا، لأَنَّنَا لاَ نَدْرِي مَاذَا أَصَابَ هَذَا الرَّجُلَ مُوسَى الَّذِي أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِ مِصْرَ، فَقُلْتُ لَهُمْ مَنْ لَدَيْهِ ذَهَبٌ فَلْيَنْزِعْهُ وَيُعْطِنِي إِيَّاهُ، فَطَرَحْتُهُ فِي النَّارِ فَخَرَجَ هَذَا الْعِجْلُ . وَلَمَّا رَأَى مُوسَى أَنَّ الشَّعْبَ غَارِقٌ فِي مُجُونِهِ بَعْدَ أَنْ أَفْلَتَ هَرُونُ زِمَامَهُمْ فَصَارُوا بِذَلِكَ مَثَارَ سُخْرِيَةِ أَعْدَائِهِمْ، وَقَفَ فِي بَابِ الْمُخَيَّمِ وَصَاحَ: كُلُّ مَنْ يَتْبَعُ الرَّبَّ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ هُنَا . فَاجْتَمَعَ حَوْلَهُ اللاَّوِيُّونَ. فَهَتَفَ بِهِمْ: هَذَا مَا يُعْلِنُهُ الرَّبُّ إِلَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ: لِيَتَقَلَّدْ كُلُّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ، وَجُولُوا فِي الْمُخَيَّمِ ذِهَاباً وَإِيَاباً مِنْ مَدْخَلٍ إِلَى مَدْخَلٍ، وَاقْتُلُوا كُلَّ دَاعِرٍ سَوَاءٌ أَكَانَ أَخاً أَمْ صَاحِباً أَمْ قَرِيباً . فَأَطَاعَ اللاَّوِيُّونَ أَمْرَ مُوسَى. فَقُتِلَ مِنَ الشَّعْبِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَحْوَ ثَلاَثَةِ آلافِ رَجُلٍ)** [خروج . 32 : 21 – 28] .

و نقرأ في (القرآن) : **(قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي * قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي)** [طه :92 – 96] . كما هو واضح أنّ (هارون) أخا (موسى) كان ينوب عنه في قيادة هذا الشّعب .. فكان الأولى به معاقبة أخيه الضّعيف الذي وافقهم بل طلب منهم جمع الذهب ، لا أن يصبّ جامَ غضبهِ بفرمانٍ إلهيٍّ على شعبٍ بلا قائد .. خاصّةً وأنّ (هارون) هذا يُعترف بضعفه في مواضعَ عدّة تواراتيًّا وقرآنيًّا ، و إن كان (القرآن) قد استجلب شخصيّة (السّامري) كي يغطي على أخطاء (هارون) ، رغم أنّها شخصيّة أخرى لقصّة أخرى تحدث فعلاً و لكن بعد قرابة السبع ة قرون من هذه الحادثة (11) . ولا أعرف تمامًا لماذا يعاتب (موسى) أخاه في (القرآن) إن لم يكن قد صنع لهم العجل أو وافقهم في مجونهم على أقل تقدير .. ؟!

أما الأغرب من كلّ هذا فإنّ (سِفر الخروج) – لسخرية الأقدار – يحتوي على (الوصايا العشر) و التي تقول سادستها : (لاَ تَقْتُلْ) [خروج . 20 : 13] .

الله .. كونه صديقًا للعائلة :

أظنّ بأنّ القارئ المتفكّر في نصوص (التوراة) بسفريها الثالث و الرابع (اللاّويين | العدد) ؛ سيُفاجأ من تلك العلاقة العائليّة بين (آل موسى) من جهة ، و (الله) من جهة أخرى . تلك العلاقة القائمة على التوبيخ في أكثر من جانب ، و التحذير وإصدار الأوامر والتهديد بالإبادة الجماعية . فيما يقوم (موسى) وأُسرته بالشّفاعة في كل مرّة لهذه الفئة التي لم تؤمن بالرّب حتى حين تجسّده لهم في أكثر من مناسبةٍ . وليس آخرها في (خيمة الاجتماع) معاتبًا ومؤنّبًا بعد حادثة تخاذل الجواسيس : **(إِلَى مَتَى يُمْعِنُ هَذَا الشَّعْبُ فِي إِهَانَتِي ، وَ إِلَى مَتَى لاَ يُصَدِّقُونَنِي)** [عدد . 14 : 11] . و لا أدري لماذا أشعر بأن الذي يتحدّث هنا ليس إلهًا بل ممثّلاً (حليوة) أجبره المُخرج السّادي على أداء دور (العُمدة) .. ! !

إنّ قراءة (التوراة) توحي بشكل أو بآخر أنّ (الله) كان متفرّغًا لبني إسرائيل في تلك الفترة الزمنيّة الحرجة من تاريخ البشرية الفتيّة . حيث أنّه يلتقي بـ (موسى) أو يناقشه في المسائل الهامة بشكل شبه يوميّ أو أُسبوعيّ ، و في بعض الأحيان يستدعيه مع أخيه (هارون) ليوبخهما معًا أو لتبليغهما بتعليمات جديدة أو لتوصيل طلبات (المنّ والسلوى) إلى المنازل . أمّا الغريب في الأمر فأنّ أختهما (مريم) كانت تحضر بعض اجتماعات القمّة الخاصّة بحلِّ المشاكل العائليّة .. تمامًا كما حصل حين تزوّج (موسى) من امرأةٍ كوشيّةٍ (= نوبيّة أو خلاسيّة) ، وهو أمر لم يرق لإخوته المعتزّين بنسبهم (اللاّوي) ممّا دعاهما لانتقاده ؛ فوبّخهما الرّب – الذي كان يتنصّت كعادته – و لم يكتفِ بهذا .. بل أصابَ (مريم) بالبرص ، ولم يكتفِ بذلك أيضًا بل أنّه قارن رحمته (الواسعة) برحمة الأب على أبنائه حين تشفّع لها (موسى) .. و أعاده بخُفّيْ حُنين : **(فَصَرَخَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ قَائِلاً : اللهُمَّ اشْفِهَا . فَأَجَابَهُ الرَّبُّ: لَوْ أَنَّ أَبَاهَا بَصَقَ فِي وَجْهِهَا، أَمَا كَانَتْ تَمْكُثُ خَجِلَةً سَبْعَةَ أَيَّامٍ ؟ فَلْتُحْجَزْ خَارِجَ الْمُخَيَّمِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَبَعْدَ ذَلِكَ تَرْجِعُ)** [عدد . 12 : 13–14] .

بعيدًا عن الأب الذي يبصق في وجه أبنائه ؛ فإنّ (مريم) هذه التي حُقنت للتوّ بـ (البرص) نبيّةٌ أخت أنبياء ، أمسكت في يوم من الأيام بالدف ورقصت للربّ ومجّدته : **(عِنْدَئِذٍ أَخَذَتْ مَرْيَمُ النَّبِيَّةُ أُخْتُ هَرُونَ، الدُّفَّ بِيَدِهَا، فَتَبِعَهَا جَمِيعُ النِّسَاءِ بِالدُّفِّ وَالرَّقْصِ، فَكَانَتْ مَرْيَمُ تُجَاوِبُهُنَّ: رَنِّمُوا لِلرَّبِّ لأَنَّهُ قَدْ تَمَجَّدَ جِدّاً. الْفَرَسَ وَرَاكِبَهُ قَدْ طَرَحَهُمَا فِي الْبَحْرِ)** [خروج . 15 : 20 – 21] . ولكن كلّ هذا لم يشفع لها لحظة ردّ الفعل الوبائيّ و القاسي من قبل الرّب التوراتيّ ، و الذي كان يجدر به أن يقسو على ابنتيْ (لوط) (= الحجاب | الستر) حين ضاجعتا أباهما المخمورَ : **(وَغَادَرَ لُوطٌ وَابْنَتَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ صُوغَرَ، وَاسْتَقَرُّوا فِي الْجَبَلِ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ . فَلَجَأَ هُوَ وَابْنَتَاهُ إِلَى كَهْفٍ هُنَاكَ . فَقَالَتْ الابْنَةُ الْبِكْرُ لأُخْتِهَا الصَّغِيرَةِ : إِنَّ أَبَانَا قَدْ شَاخَ وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ حَوْلَنَا رَجُلٌ يَتَزَوَّجُنَا كَعَادَةِ كُلِّ النَّاسِ . فَتَعَالَيْ نَسْقِيهِ خَمْراً وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ فَلاَ تَنْقَطِعُ ذُرِّيَّةُ أَبِينَا . فَسَقَتَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَبَاهُمَا خَمْراً، وَأَقْبَلَتْ الابْنَةُ الْكُبْرَى وَضَاجَعَتْ أَبَاهَا فَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي قَالَتْ الابْنَةُ الْبِكْرُ لأُخْتِهَا الصَّغِيرَةِ : إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ مَعَ أَبِي لَيْلَةَ أَمْسِ، فَتَعَالَيْ نَسْقِيهِ اللَّيْلَةَ أَيْضاً خَمْراً ثُمَّ ادْخُلِي وَاضْطَجِعِي مَعَهُ فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلاً . فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْراً فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضاً وَأَقْبَلَتْ الابْنَةُ الصَّغِيرَةُ وَضَاجَعَتْ أَبَاهَا . فَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا . وَهَكَذَا حَمَلَتْ الابْنَتَانِ كِلْتَاهُمَا مِنْ أَبِيهِمَا. فَوَلَدَتِ الْكُبْرَى ابْناً دَعَتْهُ مُوآبَ (وَمَعْنَاهُ مِنَ الأَبِ)، وَهُوَ أَبُو الْمُوآبِيِّينَ إِلَى الْيَوْمِ، أَمَّا الصُّغْرَى فَوَلَدَتِ ابْناً وَدَعَتْهُ بَنْ عَمِّي) (وَمَعْنَاهُ ابْنُ قَوْمِي) وَهُوَ أَبُو بَنِي عَمُّونَ إِلَى الْيَوْمِ)** [تكوين . 19 : 30–38] .

لاحظ عزيزي المؤمن ؛ إنّ الرّب التوراتيّ يضيق بنقاش عائلي فيصيب أختَ نبيّه بالبرص .. فيما لا ينزعج من فيلم (البورنو) الذي أدّى بطولته نبيّه الآخر مع ابنتيه في مشهد ألهمَ الهولندي (Goltzius Hendrik) رسم لوحته الشهيرة (Lot And His Daughters) والتي أنجزها في عام 1616.

و لا أدري ما هذا النّبي الذي ينام سكرانًا كلّ ليلة ، وكيف يصل إلى الانتصاب الكافي لممارسة الجنس دون أن يشعر ، بل أنّه يقذف في أرحام بناته دون أن يشعر .. وما تلك التنشئة النبويّة التي أفرزت متخصّصتينِ في زنى المَحارم .. ؟!

إنّها جريمةٌ أخلاقيّة ترفضها أشدّ ا لكائنات انحطاطًا ؛ قد مرّت دون عقاب . بل أنّ (الموآبيّات) سيظهرن لاحقًا في (سِفر العدد) و يمارسن الجنس الجماعي مع أفراد (الشعب) .

استطراد :

المسلمونَ لا يعتقدون أصلاً بشرعيّة أو صحّة كتابيْ (التوراة | الإنجيل) الموجودينِ بين أيدي الناس حاليًّا .. لذا فإنّ قصّة ابنتي (لوط) لن تزعجهم .. و لكنني سأطرح مثالينِ قرآنيّينِ ، و يليهما سؤال لا يحتاج إلى إجابة :

مثال أوّل : **(وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ)** [هود : 78 – 79] .

مثال ثانٍ : **(وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ)** [الحجر : 67 – 71] .

السؤال : لن أدخل في أخلاقيّات من يعرض (بناته) على المهاجمين ليدرأ الشرّ ؛ ولكنني سأسأل لماذا اعتبر مفسّروا القرآن كلمة (بناتي) تعني بناته الروحيّات بصفته أبَ الأمّة الروحيّ ، و كلّ النساء بناته بالضّرورة . فهذا تفسيرٌ ملتوٍ و مغامرٌ .. لأنّ القبول به سيفتح علينا مشاكل في تفسير كلمات أخرى في (القرآن) مثل (أخته – أمّه – أباه – أبيه – أخوه – أخاه – أخيه – ابنه .. إلخ) . فهل كانت (مريم) أمَ (عيسى) أمْ أنَ الأمر مجازٌ لا أكثر

؟! وهل كان (موسى) أخا (هارون) فعلاً أمْ أنّه كان أخًا للأمّة جمعاء ؟ ! وهل كان (إبراهيم) أبًا لـ (إسماعيل) بالفعل ؟ أمْ أنّ الأمّة كلّها ذريّةٌ له ؟! إنّ التفسيرات الملتوية للعبارات المستقيمة لا تدلّ سوى على قصور المفسّرين و اكتشافهم للثغرات دون القدرة على تصحيحها أو التصريح بها . فبدلاً عن الصمت تحت شعار (أضعف الإيمان) قاموا بالتدليس وخداع البسطاء بتأويل من قبيل (نساء الأمّة هنّ بنات النبي لوط ، و قد دعا الكفّار للزواج بهنّ بدلاً عن إتيان الفاحشة) و هنا الكارثة الثّانية ؛ فمن أين عرفوا أنّه يقصد الزواج ؟ فـ (القرآن) ذكر الجذر (زوج) 81 مرّة .. فهل كان يعجز عن قولها صريحةً هنا ليقطع دابر الشّك ؟

الله .. كونه جنرالاً :

الواضح لدينا أنّ الإله التوراتيّ يتّبع مفهوم التطوّر .. وهو من نواحٍ عدّة براغماتيٌّ يتأقلم مع المرحلة المُعاشة و احتياجات الشّعب اليهودي . بل أنّ تعاليم اليهودية كلّها تتوخّى المصلحة الضيّقة قبل أيّ شيءٍ . إذ بعد أن كان الربّ جوّالاً متنقّلاً مع شعبه في ترحالهم , صار عنيفًا بارعًا في ا لحرب بعد غزو أرض (كنعان) (= المنخفض) . ثمّ تطوّر إلى النزعة الاستعمارية الإمبريالية في التوسّع و احتلال دول الجوار بامتياز . وقِس على ذلك من تطوّرات الديانة فكريًّا وتأثّرها بالأديان الأخرى المجاورة .. (الزرادشتية) تحديدًا (12) .

و بسبب تلك النزعة العدوانيّة نجد بأنّ قوانين الحرب التوراتيّة أبشع من أن يتقبّلها إنسان يدعو إلى أفكار العدالة و الإحسان و المثوبة .. بل لا أدري كيف أمكن تسويقها بهذا الشكل عبر (نبيّ) . خذ مثلاً : **(وَحِينَ تَتَقَدَّمُونَ لِمُحَارَبَةِ مَدِينَةٍ فَادْعُوهَا لِلصُّلْحِ أَوَّلاً . فَإِنْ أَجَابَتْكُمْ إِلَى الصُّلْحِ وَاسْتَسْلَمَتْ لَكُمْ، فَكُلُّ الشَّعْبِ السَّاكِنِ فِيهَا يُصْبِحُ عَبِيداً لَكُمْ. وَإِنْ أَبَتِ الصُّلْحَ وَحَارَبَتْكُمْ فَحَاصِرُوهَا فَإِذَا أَسْقَطَهَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ فِي أَيْدِيكُمْ، فَاقْتُلُوا جَمِيعَ ذُكُورِ هَا بِحَدِّ السَّيْفِ. وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالْبَهَائِمُ، وَكُلُّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ أَسْلاَبٍ، فَاغْنَمُوهَا لأَنْفُسِكُمْ، وَتَمَتَّعُوا بِغَنَائِمِ أَعْدَائِكُمُ الَّتِي وَهَبَهَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ لَكُمْ. هَكَذَا تَفْعَلُونَ بِكُلِّ الْمُدُنِ النَّائِيَةِ عَنْكُمُ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ مُدُنِ الأُمَمِ الْقَاطِنَةِ هُنَا . شرائع حصار وفتح مدن أرض الموعد أَمَّا مُدُنُ الشُّعُوبِ الَّتِي يَهَبُهَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ لَكُمْ مِيرَاثاً فَلاَ تَسْتَبْقُوا فِيهَا نَسَمَةً حَيَّةً، بَ لْ دَمِّرُوهَا عَنْ بِكْرَةِ أَبِيهَا، كَمُدُنِ الْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِ وِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ كَمَا أَمَرَكُمُ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ، لِكَي لاَ يُعَلِّمُوكُمْ رَجَاسَاتِهِمِ الَّتِي مَارَسُوهَا فِي عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ، فَتَغْوُوا وَرَاءَهُمْ وَتُخْطِئُوا إِلَى الرَّبِّ إِلَهِكُمْ.)** [تثنية . 20 : 10–18] .

وأنا لستُ معنيًّا بأكثر من الإشارة إلى فداحة هذا الحقد السّماويّ على الشعوب الأرضيّة بواسطة أسلحة نبويّة يُفترض بأنّ (الأخلاق) تعني لها أولويةً ما . و أظنّ بأنّ النّزاهة تحتّم عليّ هنا أن أشيرَ إلى أنّ الكثير من الكتب تناولت الجانب الدمويّ واللاّ أخلاقيّ في (التوراة) خدمةً لأهوائها ، و ليس من أجل الحقيقة العارية (13) .

موسى قرآنيًّا :

لا شكّ أنّ لـ (موسى) مكانةً مهمّةً في الإسلام و في (القرآن) تحديدًا إذ ورد ذكره صريحًا (136) مرّة وهو رقمٌ قياسيٌّ إذا عرفنا بأنّ أقرب منافسيه من الأنبياء هو (إبراهيم) بـ (69) مرّة فقط . بل أنّي أقول بضميرٍ مرتاح أنّ الإسلام خرج من العباءة الموسويّة فأجازه في الكثير ممّا فعل . وأعزو ذلك إلى حذر الإسلام بشكل عام م ن مسألة الغوص في خبايا نفوس الأنبياء وسلوكيّاتهم الملتوية ، و الاكتفاء بقشور الشخصيّة الخارجيّة كمعادلٍ (وهميّ) للحقيقة الأخلاقيّة . و لكن رغم هذا الحذر الإسلامي سنجد أنّ صفات (موسى) في (القرآن) تتراوح بين العظيم الوقور من جهة و اللحوح اللجوج العنيد من جهة أخرى . و لإثبات وجهة نظري سأختار حكايةً قرآنيّةً نموذجيّةً من نواحٍ عدّة ؛ فهي – بعيدًا عن كونها مُقلّدة و مُقتبسة في بعض جوانبها عن (التلمود) وقصّة (يوشع و إيليا) – تحتوي على عنصري الإثارة والتشويق ، وفيها مآخذ على (موسى) ولجاجته و إلحاحه ، وفيها كشف إلهيّ عجيبٌ لعلم الباطن الذي كان يتمتّع به عبادُه الصّالحون وقتذاك .. فلنقرأ الآيات :

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً * فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً *

فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَ نْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَ نْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْ ماً * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَ مْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً) [الكهف : 65 – 82] .

قبل كلّ شيءٍ لا أنكر إعجابي بموسيقى مفردة (فانطلقا) خاصّة عبر تلاوة صاحب الصّوت النقيّ (عبد الباسط عبد الصمد) الذي أحبّ الاستماع إليه بين فترة و أخرى .

نقرأ في الحادثة أعلاه بأ نّهما (موسى | يوشع) قد سارا في طريقهما إلى غاية مضروبة (مجمع البحرين) والذي لا أحد يعرف مكانه بالضبط ، إذ أنّ رقعة تأويلاته الجغرافيّة تتروح بين (مضيق باب المندب) و (منطقة القرنة جنوبي العراق) و (مضيق تيران) و (منطقة دمياط شمالي مصر) و (مضيق جبل طارق) ، لذا هو مكان غير معلوم ، ذهب إليه (موسى) و فتاه (يوشع بن نون) الذي سيخلفه بعد موته .. ذهبا لملاقاة (الخضر) الرجل الأكثر علمًا من (موسى) و آية وصولهما هو أنْ يفقدا (الحوت) أي السمكة المملّحة التي معهما – من أجل الغداء – في البحر .. فتكون معجزةً – ع الماشي – و دلالةً على الوصول . ولما تسرّبت السمكة فعلاً إلى الماء بشكل عجائبي .. سارا على آثارهما الأولى لا يبرحان السير حتى الوصول إلى صاحبهما . و بعد مسافة غير معلومة التقيا بـ (الخضر) وهو كائن مائيّ أو محبّ للماء على ما يبدو من تلك القصّة و مازال القوم في العراق – مثلاً – يبتنون له

مقاماتٍ بجوار البرك و سواحل الأنهار في أماكن تسمى بـ (الخطوة) حيث يعتقد أنّه خطا من هنا أو هناك .. إلخ . المهم لدينا في هذا اللقاء التاريخي أنّ القارئ يلمس مقدار الإلحاح لدى (موسى) خاصّةً و أنّه آتٍ برغبةٍ مسبّقةٍ لأجل التّتلمذ على يديْ (الخضر) ، لكنّه و بدلاً عن الصمت و اكتساب المعرفة .. يقوم بمقاطعة معلّمه لثلاث مرّات كانت كفيلة بطرده من المدرسة وإلى الأبد .

والآن لنقرأ الحادثة عقليًّا ؛ فأنا لا أعرف كيف يمكن للسّفينة أن تبحرَ بعد خرقها (ثقبها) .. فـ (الخضر) في هذه الحالة جعل المساكين بالإضافة إلى فقرهم وعوزهم عاطلينَ عن العمل . وإذا كان (الثقب) لا يمنعها من الإبحار فإنّ الملك سيأخذها غصبًا ولا يكون ما فعله (الخضر) أكثر من استعراض بلا قيمة . أما كارثة الكوارث فهي قتل الغلام الذي كان الأجدر بـ (الخضر) أن يدعو ربّه ليصلح الفتى . ثمّ ألا يعلم بعاطفة الأبوين تجاه وليدهما ؟ وهو لديهما عزيزٌ وغالٍ وإن كان عاقًّا .. و هل طلب الأبوان منه قتل طفلهما مثلاً ؟ ثمّ ما معنى (يبدلهما) ؟ هل نتحدّث عن روح أم زوج أحذية رياضيّة ؟ وعلى رأي شيخي (الرّصافي) في تحليله الماتع لتلك الآية : (لماذا لم يقتل الخ ضر آزر أبا إبراهيم مخافة أن يرهق ابنه طغيانًا وكفرًا ؟) (14) . أمّا الغرابة كلّ الغرابة فتكمن في قصّة (الكنز) التي تشبه أحاجي السندباد .. و التي تعطيك فكرة عن وصولية (موسى) و انتهازيته للمواقف حيث طالب بأجر لإقامة الجدار .

من خلال هذه القصّة (القرآنية) اللّطيفة نستطيع أن نلمس مقدار عدم الثّقة و الخفّة – إن صح التعبير– التي تمتّع بهما (موسى) ، حيث أنّه لم يناقش (الخضر) بل استقبل أجوبته وتفسيراته غير المنطقية كما يستقبلها اليوم معظم المؤمنين فاغري الأفواه من صدمة المعرفة . و بسبب تلك الصفات كان قومه – فيما أزعم – لا يقيمون له أو لأخيه (هارون) وزنًا حقيقيًّا . وقد أستثني هنا بعض قومه من (سبط لاوي) لأنّ العصبيّة القبليّة تفعل فعلها في هذا الشأن .

يبقى أن أشير إلى أنّ قصصًا (موسويّة) أخرى أوردها (القرآن) لم تكُ موجودةً في (التوراة) أو (الإنجيل) إنّما هي مُقتبسة بتصرّف من (التلمود) . ومن المفيد هنا أن نذكر للقارئ أنّ (التلمود) بمكوّنيه (المشناه | الجمارا) و بشقّيْه (الفلسطيني | البابلي) ؛ يعني (دراسة وتفسير الشّريعة التوراتيّة) ، وقد بدأت محاولات تدوينه من قبل حاخامات اليهود وبشكل عشوائي منذ القرن الخامس قبل الميلاد و انتهى على شكله التام الحالي قبل مجيء الإسلام بحوالي مئة عام أو أكثر (15) .

عمومًا ؛ سأتحدّث مطوّلاً عن مشاكل النّص | القصّ القرآني وتفسيره الذي لا يحتاج أصلاً لكثير فطنة كي يُفهمَ على حقيقته ، وذلك في الحلقة الخاصّة بـ (محمّد) .

انتحال الشّريعة :

سأكتفي في هذا المبحث بالإشارة إلى أنّ كلّ القوانين الواردة في (التوراة) و التي طوّرها (الإنجيل) ثم أضاف و عدّل عليها (القرآن) قد تمّ اقتباسها حرفًا أو مضمونًا من قوانين الأمم (الوثنيّة) عند (البابليّة | الآشوريّة | الحثّيّة) والتي بدورها استقتها من الأصل الح ضاريّ الأوّل في (سومر) . و حين الحديث عن (سومر) فإنّنا نتحدّث عن ذلك الشعب العظيم الذي لم يتوهّم بالخلود الجسدي السّاذج ، فكانت كلّ ألواحه تقول بالنجاح والطموح والعلم والشرف (16) . إلاّ أنّ الفَرق الأهم فيما بين تلك الشّرائع يكمن في قدسيّتها لدى الشعوب فـ : **(بينما كانت القوانين الحثية وبلاد ما بين النهرين علمانية بطبيعتها تدوّن قرارات المشرّعين أو مراسيم الملوك ؛ كان يُعتقد أنّ الله نفسه يُملي القوانين العبرية . تُبدي هذه القوانين انسجامًا مع مطالب الدين العبري ...)** (17) . و ما يعنيني شخصيًّا في هذا المبحث هو التذكير بتلك (السرقات) لا غير في إطار رغبة – لا أنكرها – بشيوع تلك الأفكار التي ستساعد دون شكٍّ على تهشيم الخرافة الدينيّة ومصدرها السّماويّ الوهميّ .

خلاصة :

إنّ المرء لَيُصابُ بالشّلل الشعوريّ وهو يقرأ أمراض الطبقة النبويّة في (التوراة) أو في (العهد القديم) . و بعيدًا عن تقسيم الأراضي والعقارات بشكل فجّ ، فإنّ الإنسان وجهده في تلك الفترة الزّمنيّة وعبر هذا النصّ الدمويّ الطويل لا قيمة لهما بالمطلق . إذ نجد العبوديّة والعِرق والسّلالة بمعانيها النازيّة المُخجلة ، و الجنس بوصفه غريزةً ، والمرأة بوصفه ا نجاسةً مطلقةً وخطيئةً كاملةً ، و التآمر بوصفه خصلةً بشريّةً راسخةً ، والسلوك الكهنوتيّ السّاذج الذي يليق بشعوب بدائيّةٍ ، و التجسّس و المساومة والقتل و الكذب والتلفيق والتمثيل و النفاق ، والإله الذي يعاقب أحد أكثر عبيده ورعًا (أيّوب مثالاً) – بشكل لا يصلح إلاّ لمآسي السرد الرّوسي إن جاز لي استعمال التوصيف النيتشوي – بسبب الشيطان الذي أثاره عليه وأقنعه بضرورة امتحانه وابتلائه . كلّ ذلك نجده واضحًا لا يحتاج إلى أكثر من عينين صالحتين للقراءة و عقلٍ يتقن الاستيعابَ ثمّ التفكّر . ولا يمكنني أن أنزّه عن تلك الصّفات القاسية أيَّ نصٍّ في (العهد القديم) .. باستثناء نصوص الحكمة الشّاعريّة الحالمة التي كتبها الملك المرهف و العاشق (سليمان بن داود) في : (أمثال | الجامعة | نشيد الأنشاد) على التّوالي ؛ وهي ممّا يُنصح به الحالمونَ لإدراك الجمال . على الرغم من الاقتباسات ا لفادحة التي مورست في تلك الأسفار الثلاثة وبالأخصّ (نشيد الأنشاد) من أناشيد الحبّ والغزل السّومريّة .. وفي ذلك كُتبت الكتب والأبحاث وأُجريت المقارنات (18) .

خاتمة :

في ختام هذه الحلقة ؛ أودّ التّنويه إلى أنّني اقتصرت على الإشارات السّريعة فقط دون الاستشهاد بكلّ نصٍّ متاح في هذا الثراء الْمُربك ، ولم أعتنِ كثيرًا بالمعجزات (الموسويّة) خاصّة بمهاراته الجيوفيزيائيّة الأعلى من قدرتي العقليّة على إدراكها فما بالك بنقدها أو المجادلة في صحّتها ؟ حيث أنّ عملياتٍ مثل التحكّم بالطقس و شقّ البحر و خدع بصريّة تجعل من العصا حيّةً تسعى ، وغير ذلك من الأمور لم يعد دحضها مهمًّا أمام سطوة العلاقة الحميمة التي تربط (الله) بهذا الرجل وعائلته . و أيضًا ؛ لأنّ الإطالة ليست هدفًا بقدر ما يعنيني أن تصل الفكرة دون تشويش .. تاركًا بقيّة الأمر لنشاط و مخيّلة القارئ الفطن .

المسيح

همسة :

(لاَ يُقْتَلُ الآبَاءُ عِوَضاً عَنِ الأَبْنَاءِ ، وَلاَ يُقْتَلُ الأَبْنَاءُ بَدَلاً مِنَ الآبَاءِ ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ يَتَحَمّ لُ وِزْرَ نَفْسِهِ)

[التوراة | تثنية . 24 : 16] .

(لاَ تَظُنُّوا أَنّي جِئْتُ لأُلْغِيَ الشّرِيعَةَ أَوِ الأَنْبيَاءَ . مَا جِئْتُ لأُلْغِيَ ، بَلْ لأُكَمِّلَ)

[الإنجيل | متّى . 5 : 17] .

كيف يستقيم هذا مع فكرة افتداء البشريّة و تخليصها من الخطايا عبر عمليّة الصّلب .. ؟!

قبل البدء :

أوّلاً : أُميّزُ جدًّا بين البُعد الشّاعري لشخصيّة (المسيح) ، وبين حقيقته التاريخيّة و نبوّته . حيث أنّي ممّن يقفون بتأثّر عميق على سير الأنبياء و معجزاتهم وكتبهم في مجال توظيفها أدبيًّا لخدمة النّص الشّعري (19) . لكنني على النّقيض من هذا حين يتعلّق الأمر بقناعات فكريّة لا تستدعي الجانب الخياليّ و لا تتوسّل الخرافة من أجل صور شعريّة جماليّة .

ثانيًا : يجب التفريق بين (المسيح) كشخصيّة ، وبين (المسيحيّة) كديانة تأسّست أركانها الأولى بعد وفاة (المسيح) بما لا يقلّ عن نصف قرن من المواعظ و الأخبار المُتناقَلة شفويًّا .. وصارت إلى ما هي عليه الآن بعد أربعة قرون من الاضطهاد الرومانيّ .

ثالثًا : لو شئتُ أن أقتبسَ قولاً يخدمني كمدخل إلى ما أودّ قوله ؛ فلن أتأخّر في استعمال ما قاله البروفسور (شارل جنيبير) : **(كان من شأن " فضيحة الصّليب " – و هذا التعبير يرجع إلى القدّيس بولس – أن تضع ، فيما يبدو ، حدًّا لمحاولة " عيسى " . فلقد قام بالتبشير بأحداث لم تتحقّق ، ثمّ مات ، و تشتّت أتباعه في ذُعرٍ شديد ، وذهبوا إلى حدّ التنكّر للأمل الذي غرسه الأستاذ في قلوبهم . فندموا على الخطأ الذي وقعوا جميعًا فيه ، أو لعنوه)** (20) .

هُويّة :

لمّا كان العالَمُ لا يشهد في كلّ يوم تلقيح العذراوات [إلهيًّا] كي يلِدن أنبياء ومُخلّصينَ ؛ رأينا أن نقف بعجالة على معلوماته الشخصيّة :

1 . (المسيح) (= ماسح الخطئية | مرتدي المسوح | المسوح بزيت مقدّس | المسوح بكفّ الله) أو (عيسى) (= الورِع | الحكيم) أو (يسوع | يشوع) (= المخلّص) ؛ وُلِد على أرجح الأقوال في شهر (أيلول) (= سبتمبر) من العام 5 – 4 ق . مـ في أواخر عهد (هيرودوس الكبير) (21) . ويشكّك الكثير من الباحثين في صحّة اعتبار (بيت لحم) محلّ ولادته الأصليّ ، و يميلون إلى أنّه قد تمّ تلفيق الأمر فيما بعد لإتمام النبوءة المزعومة حول (خروج الرّاعي) . و يقولون أنّه وُلِد في (النّاصرة) ؛ وهي قرية بسيطة وقتذاك لم يكن لها أيّة قيمة دينيّة أو اجتماعيّة ، حتّى أنّها لم ترد في النصّ التوراتيّ مطلقًا (22) .

2 . أمّه (مريم) (= المرارة | السّيّدة العنيدة) من سبط (يهوذا) ، ابنة (يواكيم) و (حنّة) . و المخطوبة حين حملت به لأبيه (يوسُف) (= يبارك الرّب ويزيد) المعروف بـ (يوسُف النّجار) من سبط (يهوذا) أيضًا . والذي نُسبَ إليه الوليد بالفعل ومنه إلى الملك (داود) (= المحبوب) (23) ، كي تتحقّق نبوءة (العهد القديم) : **(فَإِنّنِي أُقِيمُ بَعْدَكَ مِنْ نَسْلِكَ الّذِي يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِكَ مَنْ أُ ثبّتُ مَمْلَكَتَهُ. هُوَ يَبْنِي بَيْتاً لاِسْمِي، وَأَنَا أُثَبّتُ عَرْشَ مَمْلَكَتِهِ إِلَى الأَبَدِ . أَنَا أَكُونُ لَهُ أَباً وَهُوَ يَكُونُ لِيَ ابْناً)** [صموئيل الثّاني . 7 : 12 – 14] .

3 . يغفل (الإنجيل) (= البشارة) بنُسخه القانونيّة الأربعة – قاصدًا – محطّات طفولة (المسيح) الهامّة والمكوّنه لشخصيّته . وهو أمر لحظناه أيضًا في (التوراة) مع (موسى) ، و يبدو بأنّ (محمّدًا) قد لحظه حينئذٍ فحاول التعويض عن ذلك في (القرآن) عبر قصص مستقاةٍ من مصادر أبوكريفيّة (24) .

4 . عمل نجّارًا لفترة من الزمن ، و قيل بأنّه عمل في صنع الأدوات الزراعيّة أو ما شابه ذلك .

5 . هبط من (الجليل) ليُعمّد على يد (يوحنّا المعمدان) في نهر الأردنّ ، في طقس غامض ألهم الكثيرين من بينهم الإيطالي (Piero Della Francesca) رسم لوحته (The Baptism Of Christ) المُنجزة في عام 1450 . كان ذلك على الأرجح في عام 25 – 26 مـ . أي في عهد (بيلاطس البنطي) الحاكم الرّوماني لـ (الجليل) ، حيث بلغ الثّلاثين من عمره وقتذاك ، إذ أنّ قانون الكهانة اليهوديّ لا يتيح للكاهن خدمة الرّب قبل بلوغه الثّلاثين . و لم يثبت له كـ (يهوديٍّ) أيّ دورٍ إعجازيٍّ أو تبشيريٍّ أو ثوريٍّ قبل معموديّته تلك .

6 . بعد معموديّته بفترة وإبّان اعتقال (يوحنّا المعمدان) من قبل (هيرودوس آنتيبا) ، ومن ثمّ قتله ؛ قاد (المسيح) حركة فكريّة ثوريّة – سلميّة على الأغلب – لتصحيح الديانة اليهوديّة . بدأ في (النّاصرة) حيث رفضه أهلها ، ثمّ (كفرناحوم) التي أحسنت استقباله .. إلخ .

7 . استمر في تبشيره هذا لقرابة عامٍ حتّى دفع حياته ثمنًا لتلك الرّسالة .. حيث أُتُّهم بإثارة الشّغَب و تضليل العامّة و الفوضويّة . تمّ ضربه و إهانته بقسوة ، و محاكمته يهوديًّا | رومانيًّا . توفّي في شهر (آذار) (= مارس) من عام 28 – 29 مـ على أرجح الأقوال .. إذ تمّ صلبه بشكل مشين ، وذلك بسبب التهم الواردة أعلاه . ومما تجدر إليه الإشارة هنا أنّ الصّلب في تلك الآونة كان يُطبّق على اللّصوص و المجرمين و قطّاع الطرق و أصحاب الجرائم السياسيّة ، ولا شكّ أنّ اليهود حين أصرّوا على صلب (المسيح) مردّدين : **(لِيَكُنْ دَمُهُ عَلَيْنَا وَعَلَى أَوْلاَدِنَا)** [متّى . 27 : 25] ؛ كانوا يريدون تحقير الرجل حتّى اللحظة الأخيرة . و لكنْ ؛ تبقى عملية الصّلب مهما قيل حولها ملهمةً لأجيال من الإبداع الأدبيّ والتشكيليّ خاصّة الرّسم كما في لوحة (Crucifixion The) للفرنسي (Simon Vouet) على سبيل المثال ، و المنجزة في عام 1622 .

في البدء كانت الفكرة :

قامت فكرة اللاّهوت الإفلاطونيّ على ثلاث : (هناك آلهة | آلهة تعتني بالبشر | آلهة غير قابلة للرشوة أو الشراء) (25) . وهذا المنطق الفكريّ هو الأقرب لشخصيّة (المسيح) وتعاليمه لأنّه يفترض عدم التراخي والكسل في الآلهة ، مما يعني توفّر العناية الإلهيّة الدائمة . فهو – أي المسيح – رغم يهوديّته و انغماسه في فكر (العهد القديم) ؛ كان يشعر بالأخطاء الفاحشة التي تعاني منها الرّسالة الموسويّة ، فأراد إصلاح ما رآه خللاً ، فتحرّ كَ في حيّزه اليهوديّ دون أن يكون له أيّ بُعدٍ أمميّ ، حتّى أنّه لم يوصِ بضرورة تدوين ما يصدر عنه من تعاليم و أقوال . فالأمر كان يسير – فيما أرى – على خطّين لا ثالث لهما في حياة (المسيح) : إنّ النصّ التوراتيّ هو النصّ المقدّس الوحيد ، و إنّ نهاية العالم وش يكة . على الرّغم من أنّ هذا الرأي له من يخالفه كالمفكّر (فراس السوّاح) إذ يقول : (لقد عبّر يسوع من خلال سلوكه اليوميّ عن رفضه لشريعة موسى ، و أحلّ محلّها شريعة القلب و الرّوح) (26) .

و يمكنني هنا أن أدافع عن رأيي من ناحية وقوع العامّة – على الأقل – في خطأ فادح وهو ربط الديانة المسيحيّة الحاليّة على تفرّعاتها و مذاهبها ومدارسها بشخصيّة (المسيح) وتعاليمه وقتذاك . إذ المنطق يرفض هكذا فكرة لأسباب صحيحة .. وليس لأنّ الأمر لا يروق لي :

1 . إنّ تلك الدعوة التي قادها (المسيح) لم تستمر لأكثر من أسابيع أو أشهر على ألكثر تقدير . ومات الرجل بعد ذلك و اندثرت فكرته .. فكرته التي هي بالأساس عملية تجميل لملامح اليهوديّة (27) .

2 . صرّح (المسيح) بأنّه ما جاء إلاّ لإعادة الخراف الضالّة من بني إسرائيل إلى جادة الصواب : **(مَا أُرْسِلْتُ إِلاَّ إِلَى الْخِرَافِ الضَّالَّةِ، إِلَى بَيْتِ إِسْرَائِيلَ)** [متّى . 15 : 24] . و أيضًا : **(لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْغِيَ الشَّرِيعَةَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ . مَا جِئْتُ لأُلْغِيَ ، بَلْ لأُكَمِّلَ)** [متّى . 5 : 17] . ولم يذكُر في حينها أيّ شيء عن الدين الجديد والبشريّة والخلاص و الفداء و تعدّد الطبيعات و الأقانيم و غيرها من الإدّعاءات المُريبة التي أُرسيت و استقرت بعد موته بحوالي أربعة قرون من الاضطهاد الرّوماني كما أسلفنا في المقدّمة .

3 . كان أتباعه مجموعة من السذّج و البسطاء قليلي الحظ و ضئيلي المعرفة والمنبوذين اجتماعيًّا وأصحاب المهن ا لمنحطّة وقتذاك ؛ سواء في (الجليل) أو (السّامرة) أو (القدس) . ولقد تراوحت وظائفهم بين صيّاد و جابي ضرائب وحرفيٍّ بسيط و فلاّح مفلس و عاطل عن العمل . ومنهم – بالطبع – تلاميذُه الإثنا عشر . وهنا يجب أن نشير إلى أنّه اختار الرقم [12] دون أن يغفل عن قدسيّتة لدى اليهود ، إذ يرمز إلى عدد أسباط بني إسرائيل ، و الذي سيستعيره المسلمون الشيعة الإثنا عشريّة بعد حوالي ثمانية قرون لحساب أئمتهم . على أيّة حال فقد كان اليهود الأقحاح يحتقرون سكان (الجليل) لأسباب كثيرة منها تأخّرهم في الإيمان بالرسالة اليهوديّة (28) . وهناك تلميحات لهذا في إنجيل (يوحنّا) مثلاً : **(فَقَالَ نَثَنَائِيلُ: وَهَلْ يَطْلُعُ مِنَ النَّاصِرَةِ شَيْءٌ صَالِحٌ ؟)** [يوحنّا . 1 : 46] . و ليس في هذا عيبٌ كما أرى ؛ لكنّه يضعنا أمام فكرة تقول أنّه عدّل من رسالته و تعاليمه لتتماشى مع بساطة أحلام هؤلاء . في حين أنّ فكرته الأساس – في رأيي – كانت أعلى شأنًا و أعمق بعدًا من بساطة (عظة الجبل) . آملاً أن نفرّق بين الإنساني العاطفي وبين الرّسالي المحض .. فليس أجمل من تعزية الحزانى ، و لكنّ الحضارات لا تُشيّد بالعزاء و الفرح والتهليل . و ليس أجمل من العدالة و المساواة ولكنّ الفطري الصحيح يقول بأنّنا غير متساوين ولن نقبل بالتساوي . فليس هناك ما يجبرني – على سبيل المثال – أن أتساوى مع إمّعة جاهل لا لشيءٍ سوى لأنّه إنسان مثلي .

وهنا يجب التفريق بين المساواة في الحقوق الاجتماعيّة و قانون الدولة ، وبين قيمة الإنسان كفكرة و إرادة و عنصر بناء و عطاء . ففي الجانب الأوّل نناضل من أجل قانون عدالة و مساواة . و في الجانب الثاني سنحتفظ – جميعنا – بقيمنا دون أن تضيع في حمّى التطويبات .

4 . رغم الضغط الهائل الذي تعرّض له تلامذته بعد وفاته ؛ إلاّ أنّهم لم يفعلوا أكثر من إثبات يهوديّتهم كما كان معلّمهم (المسيح) . إذ لم يتطوّروا في شيءٍ سوى أنّهم صدّقوا أنّ العالم سينتهي و أنّ ظهور معلمهم (المسيح) و صلبه ، ثمّ تلفيق بعثه دلالة ذلك .. ودلالة عودته لإقامة (مملكة الرّب) على الأرض . لذا ؛ لم يطلبوا من الذين أتوا لاتّباعهم بعد وفاة (المسيح) أكثر من الإيمان بهذه الفكرة البسيطة . بل أنّهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك و ظنّوا بأنّ معلّمهم سيأتي قريبًا جدًا حتّى أنّ الجميع سيجزى بما عمل : **(إِنِّي آتٍ سَرِيعاً، وَمَعِي الْمُكَافَأَةُ لأُجَازِيَ كُلّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ عَمَلِهِ)** [رؤيا . 22 : 12] . و الإشكال الوحيد في هذه الرؤيا اللّطيفة لـ (يوحنّا) أنّ لفظة (سريعًا) لا تعني بأيّ حال من الأحوال مدّة تقارب الـ 2000 عام .. ! !

5 . لسائل أن يسأل سؤالاً ذكيًا وصحيحًا : (كيف تطوّرت الديانة المسيحيّة إذن ؟) . ونجيبه : إنّ تلك الديانة مرّت بعدّة عمليات ما بين تج ميل وتشويه حتّى وصلت إلى ما هي عليه وصار يمكن وصفها بـ (الديانة الكبرى) . ومن أهم تلك العمليّات كان التحاق (بولس) ، حتّى أنّي كدتُ أن أسمي هذه الحلقة من المقال بـ (بولس و المسيح) إنصافًا لأدوار من أسّسوا تلك الديانة فعلاً لا خرافةً .

6 . يُعتبر (بولس) ؛ نقلة نوعيّة و فكريّة في الديانة المسيحية القائمة حاليًا . بل هو مؤسّسها الحقّ وبانيها . ولولا خلفيته اليهوديّة و نشاطه و عقله متعدّد المواهب والمعارف و جنسيّته الرومانيّة و إتقانه للغة الإغريقيّة – لغة الفلسفة وقتذاك – لما كانت دعوة (المسيح) أكثر من محاولة عابرة لا يقيم لها أكثر المؤرّخين إنصافًا أيّ وزن . ومن أهم ما جاء به هذا الرجل أنّه أتى إلى مجموعة بدائية الفكر والمعرفة بين صيّاد و عاطل و جابي ضرائب – كما

أسلفنا – ليتحدّث إليهم بكلمات مثل (الله – منطق – عقل – ضمير – خلاص – أوّل – روح .. إلخ) ، كلمات كانت كفيلة أن تجعل أكبر أتباع المسيح محرجًا لأنّه بالفعل لا يدري ما تعنيه دلالة تلك المفردات (29) . و أيضًا لن ننسى بأنّ (بولس) – وهنا يقع الخلط بين المسيح والمسيحيّة – كان أوّل من أعلن الثورة على (العهد القديم) كناموس مقدّس : **(كَانَتِ الشّرِيعَةُ هِيَ مُؤَدِّبُنَا حَتّى مَجِيءِ الْمَسِيحِ، لِكَيْ نُبَرّرَ عَلَى أَسَاسِ الإِيمَانِ . وَلَكِنْ بَعْدَمَا جَاءَ الإِيمَانُ، تَحَرّرْنَا مِنْ سُلْطَةِ الْمُؤَدِّبِ)** [غلاطية . 3 : 24 – 25] . وهذا يخالف أقوال وتعاليم (المسيح) صراحةً .

الملائكة :

يشعر المرء بتغيّر اللغة الأدبيّة في (الإنجيل) و (العهد الجديد) عمومًا عن سابقتها في (التوراة) و (العهد القديم) .. ومن بين ما يعزّز هذا الشعور هو دخول (الملائكة) على الخطّ بشكل أكثر حضورًا و أكبر أهميّة ممّا كان عليه الأمر في   (اليهوديّة) التي تتعكّز في أغلبها على المحاورات المباشرة بين (موسى) و (اللّه) . وللملائكة في (الإنجيل) أدوارٌ في تمرير (المعجزات) على هيئة صور ذهنيّة خطرة ؛ نكاد لا ننتبه إلى فداحتها من الوهلة الأولى   . وإذا كنتُ قد عزمتُ على عدم تناول مراحل طفولة (المسيح) بسبب قلّة (القانوني) الموجود ؛ فإنّني لا أستطيع تج اهل مسألة الحمل به و من ثمّ ولادته . ومن هنا يمكننا الإشارة إلى دور الملاك (= جبرائيل) الذي مرّر الأمر بشكل مافيويّ ، إذ قام بتلقيح الأم (مريم) ثم ذهب إلى الخطيب (يوسُف) وقال له إياك أن تتركها أو تنفصل عنها أو تشكّ بها لأنّها حبلت من (روح اللّه) تمامًا . بل لم يكتفِ (الملاك) بهذين النّشاطين إنّما أصرّ على الظهور لـ (يوسُف) بعد ولادة الفتى العجائبيّة ، و طلب إليه أن يرتحل بالأسرة إلى (مِصر) خوفًا من بطش الملك ، ثم ظهر له مرّة ثالثة – وأنا أستغرب جسارته – وطلب إليه العودة إلى (النّاصرة) إذ أنّ الخطر قد زال . ثم يختفي لربع قرنٍ دون وجود له أو لأحد من أقرانه .

وبعد أن يبلغ (المسيح) الثّلاثين من عمره ؛ ويبدأ حملته ، تعود (الملائكة) للظهور مرّة من أجل الخدمة : **(فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ : اذْهَبْ يَاشَيْطَانُ! فَقَدْ كُتِبَ : لِلرّبِّ إِلهِكَ تَسْجُدُ، وَإِيّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ! فَتَرَكَهُ إِبْلِيسُ، وَإِذَا بَعْضُ الْمَلاَئِكَةِ جَاءُوا إِلَيْهِ وَأَخَذُوا يَخْدِمُونَهُ)** [متّى . 4 : 10–11] . وفي أخرى من أجل القتال مجازًا على الطريقة الإسلامية : **(أَمْ تَظُنُّ أَنِّي لاَ أَقْدِرُ الآنَ أَنْ أَطْلُبَ إِلَى أَبِي فَيُرْسِلَ لِي أَكْثَرَ مِن اثْنَيْ عَشَرَ جَيْشاً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ؟)** [متّى . 26 : 53] . وفي أخرى من أجل الاستعراض على الأغلب : **(الْحَقّ الْحَقّ أَقُولُ لَكُمْ : إِنّكُمْ سَتَرَوْنَ السّمَاءَ مَفْتُوحَةً، وَمَلاَئِكَةَ اللهِ يَصْعَدُونَ وَيَنْزِلُونَ عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ)** [يوحنّا . 1 : 51] .

الجنس و الزّواج :

لن أبالغَ لو قلتُ بأنّ كتبة (العهد الجديد) لم يفهموا تمامًا معنى الممارسة الجنسيّة وقيمة الجنس كفكرة أخلاقيّة لا غرائزيّة ، فقاموا على إقصائها كشيءٍ استعصى تمييزه و هجره سيكون أيسر عليهم . فتمّ توصيف حياة الرّهبنة على أنّها قيمة روحانيّة لا ينالها الجميع بل أولئك (المنعّم) عليهم فقط . أمّا فيما يخصّ مؤسّسة الزّواج المسيحيّ ، فإنّي أؤمن في العميق من قلبي وعقلي بأنّ (المسيح) كان رجلاً طبيعيًّا عاش حياته كما فعل كلّ رجل في عصره وانتهى على الصّليب بسبب أفكاره . ولكنّه يتفوّق على سواه بدوره الدّعويّ المبشّر بجيل جديد من اليهوديّة سُمّي لاحقًا بـ (المسيحيّة) . ومنطلِقًا من هكذا إيمان ، لا أستبعد فكرة ارتباطه بامرأة .. و المرشّحة للعب هذا الدور في تلك الفترة هي (مريم المجدليّة) . ولكنني لو أردت الحديث في هذا الأمر وعن حقائق تلك الفترة .. سأضطر للاستشهاد بالأفكار (الغنوصية) التي أهملتها (الكنيسة) بل وحاربتها على مدى قرون . و كذا (إنجيل المجدليّة) المُكتشف في 1896 و أناجيل (توما | يهوذا | فليب) التي طالما أنكرت الكنيسة وجودها حتى ظهرت إلى العلن ضمن مجموع ة مخطوطات (نجع حمادي) في عام 1945 لتفقأ أعين المنكرين . ورغم أنّ فكرة المسيح المتزوّج قد ألهمت مخيّلة الأدباء لإنتاج أعمال هامة (30) ، إلاّ أنّني تعهّدت أن يتعكّز مقالي هذا على الكتب المُعترف بها فقط . غير أنّي أدعو الرّاغبين في الولوج إلى هكذا عالم منشّط للذهن ، البحث في تلك الأناجيل وتأريخ الكنيسة (الكاثوليكيّة) حيث بدأ التشويه المنظّم لـ (المجدليّة) عام 591 مـ في عهد البابا (جريجوري الأوّل) ، وتكريس صورة المرأة الخاطئة ذات الشّعر الأحمر . تلك الصّورة التي يوظّفها البريطاني (Sandys) في لوحته الشّهيرة (Mary Magdalene) والتي أنجزها في عام 1860 . و لم تنتهِ تلك الحملة إلاّ باعتذار الكنيسة الرسمي في عام 1969 عن وصمها (المجدليّة) بالعهر على مدى 1400 سنة متعلّلين بتشابه في الأسماء بين (مريم المجدليّة) و (مريم أخت لعازر) . غير أنّ التشويه كان أكبر من أن يمحوه اعتذار ، حيث أنّ السينما – على سبيل المثال – ما زالت حتّى اليوم تُظهر لنا (المجدليّة) في صورة مشينة .

و بعيدًا عن هذا ؛ يمكننا اكتشاف تلميحات عن مكانة (المجدليّة) الهامة والقريبة من (المسيح) عبر الأناجيل القانونيّة في (ظهوره) لها بعد دفنه فيما يُدعى بـ (القيامة) قائلاً : (لاَ تُمْسِكِي بِي ! فَإِنِّي لَمْ أَصْعَدْ بَعْدُ إِلَى الآبِ، بَلِ اذْهَبِي إِلَى إِخْوَتِي وَقُولِي لَهُمْ : إِنِّي سَأَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ، وَإِلهِي وَإِلهِكُمْ) [يوحنّا . 20 : 17] . فصدّقت ما رأت بل شاءت أن تلمسه في مشهد ألهم الرّسامين على مدى قرون ، ومنهم الرّوسي (Alexander Ivanov) الذي رسم لوحته (Appearance of Christ The to Mary Magdalene) المُنجزة عام 1836 . فيما لم يصدّق بقيّة التلاميذ ذلك حتى (ظهر) لهم موبّخًا اضطرابهم وشكوكهم : (**مَا بَالُكُمْ مُضْطَرِبِينَ؟ وَلِمَاذَا تَنْبَعِثُ الشُّكُوكُ فِي قُلُوبِكُمْ؟**) [لوقا . 24 : 38] .

المهم لدينا – الآن – وبعيدًا عن جدليّة زواج (المسيح) ؛ نقول أنّ موسّسة الزّواج في (العهد الجديد) أكثر شدّة منها في (التوراة) و (القرآن) . وهنا بعض الأمثلة على ما نرى :

1 . الطلاق غير واردٍ ولا مستحبّ إلاّ لعلّة الزنى : (**إِنّ الَّذِي يُطَلِّقُ زَوْجَتَهُ لِغَيْرِ عِلَّةِ الزِّنَى، وَيَتَزَوّجُ بغَيْرِهَا، فَإِنّهُ يَرْتَكِبُ الزِّنَى . وَالَّذِي يَتَزَوّجُ بِمُطَلَّقَةٍ، يَرْتَكِبُ الزِّنَى**) [متّى . 19 : 9] .

و نقول هنا : ما جدوى هذا الرّباط المقدّس حين لا يمكن أن يتعايش الزّوجان .. فالمرء لن ينتظر حادثة (الزنى) كي يطلّق زوجته .. بل ربّما كانا غير متفاهمين ؛ هكذا ببساطة .. ليسا قادرين على إتمام المسيرة كتفًا بكتف .. فما العمل .. ؟!

2 . في (الجنّة) المزعومة يكون الزواج روحيًا و يحلّق الجميع بسعادة في ملكوت الرّب دون أدنى إمكانية للتواصل الجنسي : (**فَرَدّ عَلَيْهِمْ يَسُوعُ قَائِلاً : أَنْتُمْ فِي ضَلاَل لأَنّكُمْ لاَ تَفْهَمُونَ الْكِتَابَ وَلاَ قُدْرَةَ اللهِ . فَالنّاسُ فِي الْقِيَامَةِ لاَ يَتَزَوّجُونَ وَلاَ يُزَوّجُونَ، بَلْ يَكُونُونَ كَمَلاَئِكَةِ اللهِ فِي السّمَاءِ)** [متّى . 22 : 30] .

ولا أشكّ بأنّ تلك (الجنّة) لا تروق للكثيرين – للمسلمين مثلاً – ولو وعدهم بها (المسيح) لما آمن به أحد .

3 . الدعوة إلى الرّهبنة : **(فَقَالَ لَهُ تَلاَمِيذُهُ: إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالَةَ الزّوْجِ مَعَ الزّوْجَةِ، فَعَدَمُ الزّوَاجِ أَفْضَلُ! فَأَجَابَهُمْ: هَذَا الْكَلاَمُ لاَ يَقْبَلُهُ الْجَمِيعُ، بَلِ الّذِينَ أُنْعِمَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ . فَإِنّ بَعْضَ الْخِصْيَانِ يُوْلَدُونَ مِنْ بُطُونِ أُمّهَاتِهِمْ خِصْيَاناً؛ وَبَعْضُهُمْ قَدْ خَصَاهُمُ النّاسُ؛ وَغَيْرُهُمْ قَدْ خَصَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَجْلِ مَلَكُوتِ السّمَاوَاتِ. فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْبَلَ هَذَا، فَلْيَقْبَلْهُ!)** [متّى . 19 : 10–12] . أو هنا : **(يَحْسُنُ بِالرّجُلِ أَلاّ يَمَسّ امْرَأَةً . وَلكِنْ، تَجَنُّباً لِلزّنَا، لِيَكُنْ لِكُلِّ رَجُلٍ زَوْجَتُهُ، وَلِكُلِّ امْرَأَةٍ زَوْجُهَا)** [كورنثوس الأولى . 7 : 1 – 2] .

4 . قواعد مشوّشة حول زواج الأرامل : **(أَقُولُ لِغَيْرِ الْمُتَزَوّجِينَ وَلِلأَرَامِلِ إِنّهُ يَحْسُنُ بِهِمْ أَنْ يَبْقَوْا مِثْلِي . وَلَكِنْ إِذَا لَمْ يُمْكِنْ هُمْ ضَبْطُ أَنْفُسِهِمْ، فَلْيَتَزَوّجُوا . لأَنّ الزّوَاجَ أَفْضَلُ مِنَ التّحَرُّقِ)** [كورنثوس الأولى . 7 : 8 – 9] . وعلى الرغم من تلك اللّمحة الطهورة ؛ فإنّ (بولس) يناقض نفسه و يقول : **(أَمّا الأَرَامِلُ الشّابّاتُ، فَلاَ تُقَيّدْهُنّ. إِذْ عِنْدَمَا يَبْطَرْنَ عَلَى الْمَسِيحِ، يَرْغَبْنَ فِي الزّوَاجِ، فَيَصِرْنَ أَهْلاً لِلْقِصَاصِ، لأَنّهُنّ قَدْ نَكَثْنَ عَهْدَهُنّ الأَوّلَ . وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يَتَعَوّدْنَ الْبَطَالَةَ وَالتّنَقّلَ مِنْ بَيْتٍ إِلَى بَيْتٍ. وَلاَ تَكْفِيهِنّ الْبَطَالَةُ، بَلْ يَنْصَرِفْنَ أَيْضاً إِلَى الثّرْثَرَةِ وَالتّشَاغُلِ بِمَا لاَ يَعْنِيهِنّ وَالتّحَدُّثِ بِأُمُورٍ غَيْرِ لاَئِقَةٍ . فَأُرِيدُ إِذَنْ أَنْ تَتَزَوّجَ الأَرَامِلُ الشّابّاتُ، فَيَلِدْنَ الأَوْلاَدَ، وَيُدَبّرْنَ بُيُوتَهُنّ، وَلاَ يُفْسِحْنَ لِلْمُقَاوِمِ فِي الْمَجَالِ لِلطّعْنِ فِي سُلُوكِهِنّ. ذَلِكَ لأَنّ بَعْضاً مِنْهُنّ قَدِ انْحَرَفْنَ وَرَاءَ الشّيْطَانِ فِعْلاً.**

وَإِنْ كَانَ لأَحَدِ الْمُؤْمِنِينَ أَوِ الْمُؤْمِنَاتِ أَرَامِلُ مِنْ ذَوِيهِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُعِينَهُنّ حَتّى لاَ تَتَحَمّلَ الْكَنِيسَةُ الأَعْبَاءَ، فَتَتَفَرّغَ لإِعَانَةِ الأَرَامِلِ الْمُحْتَاجَاتِ حَقّا) [تيموثاوس الأولى . 5 : 11 – 16] . ولا نعرف تمامًا كيف سيكون حال المؤمنين حين يقع هذا الخلط (البولسي) في النصيحة ، حيث أنّ رسالته الأولى إلى (كورنثوس) يدعو فئة الأرامل إلى الرّهبنة ، فيما يدعو في رسالته الأولى إلى (تيموثاوس) فئة الأرامل ذاتها إلى الزواج و الإنجاب و عدم النميمة و الانحراف .. في لهجة تبدو انفعاليّة جدًا .

5 . بعيدًا عن كلّ ما سبق فإنّنا نُصدم من الانحلال الأخلاقيّ الذي كانت علي ه مجموعات من المسيحيين الأوائل ، حيث شيوع الزنى بشكل يفوق ما كانت عليه الأمم (الوثنيّة) . و في هذا نلاحظ أنّ (بولس) نفسه قد قال بوضوح : **(قَدْ شَاعَ فِعْلاً أَنّ بَيْنَكُمْ زِنًى . وَمِثْلُ هَذَا الزّنَى لاَ يُوجَدُ حَتّى بَيْنَ الأُمَمِ. ذَلِكَ بِأَنّ رَجُلاً مِنْكُمْ يُعَاشِرُ زَوْجَةَ أَبِيهِ)** [كورنثوس الأولى . 5 : 1] .

قيمة المرأة :

لمّا كانت المرأة في النصوص التوراتيّة في منزلة تتأرجح بين سبب الخطيئة و معنى النّجاسة ، حتّى أنّها تُعزل كأيّ مصاب بالجذام في أثناء فترة الحيض .. والعزل هنا تحقيريّ يمارسه طبيب السّماء الخبير بكل تلك الإفرازات . بل أنّ تعليمات الرّب ونصائحه الطبيّة في (التوراة) حول هذا الموضوع تجعلنا نعتقد بقوّة أنّ أوان دورة المرأة الشهرية كان معلومًا لكل أفراد المنزل إن لم يكن الحي كي يمارسوا تعاليم الوقاية المطلوبة . أقول لما كانت مكانة المرأة بهذا الشّكل في (التوراة) ؛ فإنّ (العهد الجديد) بالإضافة إلى كونه قد صادق على شريعة (موسى) بما تحتويه من غبن لحقوق المرأة في الكرامة و الميراث و المكانة الاجتماعيّة و الاختيار ، بل أنّ شريعة (موسى) تجعل المرأة من الموروثات إذا مات عنها زوجها ، و تجيز للرّجل بيع ابنته كأمةٍ .. إلخ (31) . فإنّه – أي العهد الجديد – يذكر لنا أمورًا يختصّ بها مثل :

1 . للنساء قيمة ثانويّة في المجتمع لا يتم عدّهن بجانب الرجال .. فنجد اللغة الإنجيلية تفصل النساء والأطفال عن الرجال بشكل يبدو طبقيًا في أكثر من موضع ، مثلا : **(وَكَانَ عَدَدُ الآكِلِينَ نَحْوَ خَمْسَةِ آلاَفِ رَجُلٍ، مَا عَدَا النِّسَاءَ وَالأَوْلاَدَ)** [متّى . 14 : 21] .

2 . لقد أخرج (المسيح) الكثير من الشياطين من أجساد النساء ؛ و بشكل يدعو إلى الاعتقاد بأنّهن أكثر خطيئة من الرجال . و في حالة واحدة أخرج سبعة ش ياطين دفعة واحدة من جسد أحد المرضى ، أما المفارقة فإنّ المُصابة كانت (مريم المجدليّة) ، وأظنّ بأنّ تحديد الرقم بسبعة شياطين لا بدّ وأنّه يعني شيئًا ما . **(وَبَعْضُ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي كُنَّ قَدْ شُفِينَ مِنْ أَرْوَاحٍ شِرِّيرَةٍ وَأَمْرَاضٍ، وَهُنَّ: مَرْيَمُ الْمَعْرُوفَةُ بِالْمَجْدَلِيَّةِ الَّتِي طَرَدَ مِنْهَا سَبْعَةَ شَيَاطِينَ، وَيُوَنَّا زَوْجَةُ خُوزِي وَكِيلِ هِيرُودُسَ، وَسُوسَنَّةُ، وَغَيْرُهُنَّ كَثِيرَاتٌ مِمَّنْ كُنَّ يُسَاعِدْنَهُ بِأَمْوَالِهِنَّ)** [لوقا . 8 : 3] .

3 . خضوع المرأة التام للرجل و بشكل يفوق رؤية الإسلام الصارمة : **(أَيَّتُهَا الزَّوْجَاتُ، اخْضَعْنَ لأَزْوَاجِكُنَّ، كَمَا لِلرَّبِّ)** [أفسس . 5 : 22] . أو **(فَكَمَا أَنَّ الْكَنِيسَةَ قَدْ أُخْضِعَتْ لِلْمَسِيحِ، فَكَذلِكَ الزَّوْجَاتُ أَيْضاً لأَزْوَاجِهِنَّ، فِي كُلِّ شَيْءٍ)** [أفسس . 5 : 24] . أو **(لِتَصْمُتْ النِّسَاءُ فِي الْكَنَائِسِ، فَلَيْسَ مَسْمُوحاً لَهُنَّ أَنْ يَتَكَلَّمْنَ، بَلْ عَلَيْهِنَّ أَنْ يَكُنَّ خَاضِعَاتٍ، عَلَى حَدِّ ما تُوصِي بِهِ الشَّرِيعَةُ أَيْضاً)** [كورنثوس الأولى . 14 : 34] .

وغير ذلك الكثير من الإشارات .

المحبّة المشروطة :

يغلب رأيٌ يقول بأنّ (المسيح) لم يكن دمويّ المزاج ، ولا صاحب فنون قتالية أو دراية حربية ، و حتى إلهه الذي بشّر به كان أقرب إلى أخلاقيّاته هو . غير أنّ المحبّة التي طالما اقترنت باسم (المسيح) لم تكن صكًّا على بياض ؛ إنّما هي مشروطة باتّباع دربه . و يمكن أن نرصد بعض ملامح المقايضة غير الأخلاقيّة في :

(كُلُّ مَنْ يُنْكِرُنِي أَمَامَ النّاس، أُنْكِرُهُ أَنَا أَيْضاً أَمَامَ أَبِي الّذِي فِي السّمَاوَاتِ . لاَ تَظُنُّوا أَنّي جِئْتُ لأُرْسِيَ سَلاماً عَلَى الأَرْضِ . مَا جِئْتُ لأُرْسِيَ سَلاَماً، بَلْ سَيْفاً . فَإِنّي جِئْتُ لأَجْعَلَ الإِنْسَانَ عَلَى خِلاَفٍ مَعَ أَبِيهِ، وَالْبِنْتَ مَعَ أُمِّهَا، وَالْكَنّةَ مَعَ حَمَاتِهَا . وَهَكَذَا يَصِيرُ أَعْدَاءَ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ . مَنْ أَحَبّ أَبَاهُ أَوْ أُمّهُ أَكْثَرَ مِنّي، فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي. وَمَنْ أَحَبّ ابْنَهُ أَوِ ابْنَتَهُ أَكْثَرَ مِنّي، فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي . وَمَنْ لاَ يَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي، فَهُوَ لاَ يَسْتَحِقُّنِي . مَنْ يَتَمَسّكْ بِحَيَاتِهِ، يَخْسَرْهَا) [متّى . 10 : 33 – 39] .

و أيضًا :

(جِئْتُ لأُلْقِيَ عَلَى الأَرْضِ نَاراً، فَلَكَمْ أَوَدُّ أَنْ تَكُونَ قَدِ اشْتَعَلَتْ) [لوقا . 12 : 49] .

و أيضًا :

(وَلكِنّ الْمَرْأَةَ اقْتَرَبَتْ إِلَيْهِ، وَسَجَدَتْ لَهُ ، وَقَالَتْ : أَعِنّي يَاسَيّدُ ! فَأَجَابَ: لَيْسَ مِنَ الصّوَابِ أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِجِرَاءِ الْكِلاَبِ) [متّى . 15 : 25 – 26] .

وغير ذلك من الإشارات التي يفسّرها العقلاء بأنّها دعوات مشوّشة .. ففي الأولى نلاحظ بأنّه يدعو إلى تهشيم أواصر الأسرة في سبيله . بل و يفخر بأنّه جاء ليفرّق أفراد الأسرة الواحدة عن بعضهم البعض . مناقضًا نفسه فيما بعد ليقول : **(كُلُّ مَمْلَكَةٍ تَنْقَسِمُ عَلَى ذَاتِهَا تَخْرَبُ. وَكُلُّ مَدِينَةٍ أَوْ بَيْتٍ يَنْقَسِمُ عَلَى ذَاتِهِ، لاَ يَصْمُدُ)** [متّى . 12 : 25] .

و في الثّانية فإنّه يتكلّم بما لا يليق بالوديع المسالم كما يحبّ المسيحيّون تصويره . و الثالثة ، يتحدّث بمنطق طبقيّ فج مثير للاستغراب .. إذ يصف الكنعانيين بـ (الكلاب) ، وبأنّ رسالته محصورة في بني إسرائيل .. ممّا يدلّل على أنّ أقصى أحلامه كانت مملكة بين (الجليل) و (القدس) .

و لكن لا ريب في أنّ المؤمن سينبري ليخبرنا ما جهلنا فهمه وأنّها تعني كذا وكذا . و السّبب فيما أظنّ أنّ الإله الديني لا يقول كلامًا مفهومًا في العادة .. فهو شاعر لا يطيق أمام لذّة المجاز صبرا .. ! !

أخلاق الضعف والمسكنة :

كثيرون تحدّثوا عن (الأخلاق المسيحيّة) و نقدها ، متناولين إيّاها كمعيار لدراسة (علم الأخلاق) برمّته . فمنهم من وقف عليه بحذر و ارتياب – سبينوزا [الذي لا يُعجبني] مثالاً – حيث يدعو بصراحة إلى أن يحافظ الإنسان على بقائه وكيانه دون أن يتلاشى بسبب العاطفة التي يصفها بـ (الفكرة الناقصة) . و منهم من نادى بتنحية هذا المعيار الأخلاقي لأنّه مثير للسّخط وغير واقعي – شوبنهور مثالاً – . و منهم من قال بأنّه مرض يصيب الإنسان فيجعله منحطًّا و مشوّهًا وفانيًا – نيتشه مثالاً – . وأنا أميل إلى رأي الأخير إذ قلتُ يومًا : **(مَنْ أَسْرَفَتْ فِيهِ المَوَدّةُ سَوْفَ يَفْنَى أَوّلاً)** (32) ؛ لسبب بسيط هو أنّ فطرة الإنسان السليمة لا تقوده إلى إعطاء خدّه الأيسر لمن صفع بالفعل خدّه الأيمن . ولا يشعر هذا الإنسان برغبة في أن يكون غبيًّا كأن يغفر لصاحبه كلّ ما يجني من خطايا ما دام يتوب ويعتذر .. حتّى لو تكرّر الذنب سبع مرّات يوميًّا .. ! ! أعتقد جازمًا إنّ هكذا أخلاقيّات لا يستطيع أعتى المثاليين إجازتها .. أو القول بصوابها .

وبعيدًا عن الأخلاقيّات غير العنيفة لشخص (المسيح) .. فإنّنا حين نناقش الديانة المسيحيّة وما جنته من ويلات على البشرية في مراحل تاريخية سابقة ؛ سنقول بلا تردّد بأنّها كانت تمارس الإبادة الجماعيّة والحجر الفكري والفوضويّة اللاّ خلاّقة مستظلّةً بالصّليب و بتحالف (مبارك | مقدّس) بين الملوك وآباء الكنيسة و رغبات الشّعوب المتعطّشة للدّم في تلك الفترة . أمّا أولئك الذين يتحدّثون عن الغرب و أوربّا المتسامحة – نوعًا ما – الآن فنقول لهم : إنّ القوانين العَلمانية متسامحة وليست أوربّا المسيحيّة لأنّ الأديان لا تعرف التسامح والإيمان بالأديان يجبر المرء بشكل أو بآخر على محاربة – ولو بالخفاء – أيّ إلهٍ لا يمثّل دينه .

ومن هنا أتّفق تمامًا مع (فيورباخ) الذي رأى ما مضمونه : **(عدم التسامح هو النتيجة الحتميّة للأديان)** . وعليه ؛ فالقانون العَلماني الذي يُطبّق في أيّة بقعة من العالم سيكون ناجحًا ومتسامحًا وسيكفل الحياة النظيفة للجميع ، إذ ستتوفّر الشروط الصحيّة و الأخلاقيّة لتطوّر الإنسان دون الحاجة لوساطة سماويّة ربّانيّة ، أو كما يعبّر (ماركس) : **(الدولة الحقيقيّة لا تحتاج إلى الدين من أجل اكتمالها السّياسي . و أكثر من ذلك فهي تستطيع أن تطرح الدين لأنّ الأساس الإنساني للدين متحقق فيها بطريقة دنيويّة)** (33) .

أقول هذا لأنّي أعيش هنا في أوربّا ؛ في ظلّ دولة العَلمانية ، و ليس في ظلّ الكنيسة .

المعجزات :

إنّ أخطر مرحلة من مراح ل مناقشة الأديان هي تعاملنا مع (المعجزة) على اعتبارها خرافة وظنّ وتلفيق و تقوّل ، فيما يراها المؤمن سببًا قطعيًّا لوجود الإله الديني . وكما في حالة (موسى) نقف أمام (المسيح) بشيءٍ من التساؤل الذي يُربك الكفّار فقط ، إذ جنّب (اللّه) المؤمنين محنة التساؤل مسبقاً .. نقف لنرصد الآتي :

1 . ما يكدّر صفو عقلي بالفعل هو معجزات الإطعام الجماعي ، في برنامج غذاء عالميّ لا يقوى عليه غير المؤيّد بمعونة اللّه .. فها هو يقوم بإطعام خمسة آلاف رجل – عدا النساء و الأطفال – بخمسة أرغفة و سمكتين : **(فَقَالُوا: لَيْسَ عِنْدَنَا هُنَ ا سِوَى خَمْسَةِ أَرْغِفَةٍ وَسَمَكَتَيْنِ. فَقَالَ: أَحْضِرُوهَا إِلَيّ هُنَا ! وَأَمَرَ الْجُمُوعَ أَنْ يَجْلِسُوا عَلَى الْعُشْبِ . ثُمّ أَخَذَ الأَرْغِفَةَ الْخَمْسَةَ وَالسّمَكَتَيْنِ، وَرَفَعَ نَظَرَهُ إِلَى السّمَاءِ، وَبَارَكَ وَكَسّرَ الأَرْغِ فَةَ، وَأَعْطَاهَا لِلتّلاَمِيذِ، فَوَزّعُوهَا عَلَى الْجُمُوعِ. فَأَكَلَ الْجَمِيعُ وَشَبِعُوا. ثُمّ رَفَعَ التّلاَمِيذُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قُفّةً مَلأُوهَا بِمَا فَضَلَ مِنَ الْكِسَرِ . وَكَانَ عَدَدُ الآكِلِينَ نَحْوَ خَمْسَةِ آلاَفِ رَجُلٍ، مَا عَدَ ا النّسَاءَ وَالأَوْلاَدَ)** [متّى . 14 : 17 – 21] .

بل أنّه يعيد الكرّة و يطعم أربعة آلاف رجل – عدا النساء والأطفال – بسبعة أرغفة وعدد قليل من صغار السمك : **(فَسَأَلَهُمْ: كَمْ رَغِيفاً عِنْدَكُمْ؟ أَجَابُوا : سَبْعَةٌ وَبَعْضُ سَمَكَاتٍ صِغَارٍ! فَأَمَرَ الْجَمْعَ أَنْ يَجْلِسُوا عَلَى الأَرْضِ، ثُمّ أَخَذَ الأَرْغِفَةَ السّبْعَةَ وَالسّمَكَاتِ، وَشَكَرَ وَكَسّرَ، وَأَعْطَى التّلاَمِيذَ، فَوَزّعُوهَا عَلَى الْجُمُوعِ . فَأَكَلَ الْجَمِيعُ حَتّى شَبِعُوا . ثُمّ رَفَعَ التّلاَمِيذُ سَبْعَةَ سِلاَلٍ مَ لأُوهَا بِمَا فَضَلَ مِنَ الْكِسَرِ . وَكَانَ عَدَدُ الآكِلِينَ أَرْبَعَةَ آلاَفِ رَجُلٍ، مَاعَدَا النّسَاءَ وَالأَوْلاَدَ)** [متّى . 15 : 34 – 38] .

لاحظ عزيزي المؤمن ، بأنّه لم يطعمهم فقط بل أنّهم حملوا معهم السّلال ملئى ببقايا الخبز والسّمك .

2 . لعلّ في الماشي فوق الماء واحدةً من أكثر الصّور إلهامًا للشّعراء والأدباء وحتّى السّينما في العصر الحديث .. والرّسامين بالطبع ومنهم الفرنسي (Francois Boucher) صاحب لوحة (to Walk on the Water Peter Invited) المُنجزة في عام 1766 . فالمشي فوق الماء صورةٌ تكاد تكون راسخة في ذهن الجميع . إنّما حين ننظر إليها متجرّدين من الحكم الذهني المسبّق غير آبهين بالجماليّات الفنيّة ومكتفين بالحقيقة ، وفي ضوء قراءة النص : **(وَفِي الرُّبْعِ الأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ جَاءَ يَسُوعُ إِلَى التّلاَمِيذِ مَاشِياً عَلَى مَاءِ الْبُحَيْرَةِ. فَلَمّا رَآهُ التّلاَمِيذُ مَاشِياً عَلَى الْمَاءِ، اضْطَرَبُوا قَائِلِينَ : إِنّهُ شَبَحٌ ! وَمِنْ خَوْفِهِمْ صَرَخُوا. وَفِي الْحَال كَلّمَهُمْ يَسُوعُ قَائِلاً : تَشَجّعُوا ! أَنَا هُوَ. لاَ تَخَافُوا ! فَقَالَ لَهُ بُطْرُسُ : إِنْ كُنْتَ أَنْتَ هُوَ ، فَمُرْنِي أَنْ آتِيَ إِلَيْكَ مَاشِياً عَلَى الْمَاءِ ! فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ : تَعَالَ! فَنَزَلَ بُطْرُسُ مِنَ الْقَارِبِ وَمَشَى عَلَى الْمَاءِ مُتّجِهاً نَحْوَ يَسُوعَ . وَلَكِنّهُ عِنْدَمَا شَعَرَ بِشِدّةِ الرّيحِ، خَافَ وَبَدَأَ يَغْرَقُ، فَصَرَخَ : يَارَبُّ نَجِّنِي ! فَمَدّ يَسُوعُ يَدَهُ فِي الْحَالِ وَأَمْسَكَهُ وَقَالَ لَهُ : يَاقَلِيلَ الإِيمَانِ، لِمَاذَا شَكَكْتَ؟ وَمَا إِنْ صَعِدَا إِلَى الْقَارِبِ، حَتّى سَكَنَتِ الرّيحُ. فَتَقَدّمَ الّذِينَ فِي الْقَارِبِ، وَسَجَدُوا لَه قَائِلِينَ : أَنْتَ حَقّاً ابْنُ اللهِ !)** [متّى . 14 : 25 – 33] . حين نفعل كلّ هذا .. صدّقوني نجد بأنّ الأمر – وببساطة – غير مقبول . ورغم أساطير الديانات و الدراويش و الصوفيين حول قدرات من هذا النّوع فالأصحّ أن تُهمل الأمور التي يرفضها العقل دون الحاجة إلى تعليل . كما لا يحتاج المؤمن بالإله الدينيّ و معجزات أنبيائه إلى مبرّر ، أكثر من تجميد عقله . وفي هذا الشّان من الجيّد أن نستذكر الدراسة الهامّة التي قامت بها مجموعة من علماء متخصّصين أشارت إلى أنّ (المسيح) ربّما لم يمشِ فعلاً على ماء و إنّما على طبقة ماء متجمّدة فيما يسمّ ى بـ (ثلوج الرّبيع) التي تحتمل وزن شخص بالغ (34) . يبقى أنّي أستغرب كيف لم يتناول (القرآن) تلك المعجزة الخارقة وهو المولع برصد كل تلك الأعاجيب .. فعلاً أستغرب .

3 . إنّ القدرة الطبيّة والعلاجيّة التي تمتّع بها (المسيح) غير قابلة للمناقشة هنا لأنّني كلّما مررت على تلك الأخبار وددتُ لو أنّي أسأل كتبة الأناجيل : (أنّى يكون هذا ؟) . رغم يقيني بأنّ سؤالي هذا سيذهب أدراج الريح فيما يبقى الرّب خالدًا بعقاقيره والأمصال . و كما قيل : **(بالنسبة للأزمنة القديمة ؛ حيث السيادة للمعتقدات الخرافيّة و الكلّ مهيّأ للإيمان بالمعجزة كان مثل هذا العلاج شائعًا على وجه الخصوص ، و ينسحب أوّل ما ينسحب على من يدعون مسكونين و يعيشون حالة غيبوبة)** (35) .

4 . عمليّات البعث والإحياء التي وردت قد تأثّر بها القوم عن طريق أساطير (العهد القديم) كما في سفري [ملوك الثّاني . 4 : 32 – 35] أو [حزقيال . 37 : 3 – 10] ، وكلّها تقول بأنْ لا جديد في هذا الشأن .

و الآن ؛ لا أدري ما أقول سوى أنّي أتساءل : أليست المعجزة هي أنّك – عزيزي المؤمن – تقرأ كل هذا ولا تحرّك ساكنًا .. ؟!

متفرّقات :

1 . لماذا يتّكئ (يوحنا بن زبدي) وهو كاتب أحد الأناجيل القانونيّ ة ، و له ثقل في المسيحيّة والمعرّف لاحقًا بـ (القدّيس يوحنّا الإنجيليّ) .. أقول لماذا يتّكئ على حضن (المسيح) ؟ و نذكر هنا أنّ جدلاً ثار حول اللّوحة الشّهيرة (The Last Supper) للإيطاليّ الفذّ (Da Vinci Leonardo) والمُنجزة في عام 1498 ، إذ ذهب البعض إلى أنّ الجالس يمين (المسيح) هي (المجدليّة) ؛ فيما دافع أصحاب الرأي الآخر قائلين أنّه (يوحنّا) وكان جميلا وناعمًا لدرجة أنّه قد يختلط على الناظرين الأمر . ناهيك عن الإشارة إليه بأنّه (**الَّذِي يُحِبُّهُ يَسُوعُ**) .. ! !

(وَكَانَ التِّلْمِيذُ الَّذِي يُحِبُّهُ يَسُوعُ مُتَّكِئاً عَلَى حِضْنِهِ) [يوحنّا . 13 : 23] .

2 . ما الحكمة من أن يخلع (المسيح) ثيابه في ليلته الأخيرة الحاسمة ، ويئتزر بمنشفة ، ثمّ يغسل أقدام تلامذته وينشّفها بذات المنشفة التي كانت قد ائتزر بها ، و هذا يعني أنّه تعرّى :

(نَهَضَ عَنْ مَائِدَةِ الْعَ شَاءِ، وَخَلَعَ رِدَاءَهُ وَأَخَذَ مِنْشَفَةً لَفَّهَا عَلَى وَسَطِهِ، ثُمّ صَبّ مَاءً فِي وِعَاءٍ لِلْغَسْلِ، وَبَدَأَ يَغْسِلُ أَقْدَامَ التّلاَمِيذِ وَيَمْسَحُهَا بِالْمِنْشَفَةِ الَّتِي عَلَى وَسَطِهِ) [يوحنّا . 13 : 4 – 5] .

3 . لماذا ينزعج المسيح يّون (الشرقيّون) و (الكاثوليك) من الجدل حول بتوليّة (مريم) ؟ ولماذا يختلقون امرأة أخرى اسمها (مريم) أيضًا ويجعلونها أختًا لـ (مريم) الأولى و خالةً لـ (المسيح) .. كلّ هذا كي يثبتوا أنّها لم تتزوج وتنجب . فيما أنّ (البروتستانت) أكثر تحضّرًا حين آمنوا بأنّ لـ (المسيح) أخوة من أمّه (مريم) و أبيه (يوسف) .

كما أنّ (الإنجيل) واضح في لغته هنا :

(أَلَيْسَ هُوَ ابْنَ النَّجّارِ؟ أَلَيْسَتْ أُمُّهُ تُدْعَى مَرْيَمَ وَإِخْوَتُهُ يَعْقُوبَ وَيُوسُفَ وَسِمْعَانَ وَيَهُوذَا؟ أَوَ لَيْسَتْ أَخَوَاتُهُ جَمِيعاً عِنْدَنَا؟ فَمِنْ أَيْنَ لَهُ هَذِهِ كُلُّهَا؟) [متّى . 13 : 55 – 56] .

(فَقَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ : هَا إِنّ أُمّكَ وَإِخْوَتَكَ وَاقِفُونَ خَارِجاً يَطْلُبُونَ أَنْ يُكَلِّمُوكَ) [متّى . 12 : 47] .

(أَلَيْسَ هَذَا هُوَ النَّجّارَ ابْنَ مَرْيَمَ، وَأَخَا يَعْقُوبَ وَيُوسِي وَيَهُوذَا وَسِمْعَانَ؟ أَوَلَيْسَتْ أَخَوَاتُهُ عِنْدَنَا هُنَا؟) [مرقس . 6 : 3] .

(وَكَانَ قَدْ جَلَسَ حَوْلَهُ جَمْعٌ كَبِيرٌ، فَقَالُوا لَهُ : هَا إِنّ أُمّكَ وَإِخْوَتَكَ فِي الْخَارِجِ يَطْلُبُونَكَ) [مرقس . 3 : 32] .

(فَقِيلَ لَهُ: إِنّ أُمّكَ وَإِخْوَتَكَ وَاقِفُونَ خَارِجاً، يُرِيدُونَ أَنْ يَرَوْكَ) [لوقا . 8 : 20] .

(فَإِنّ إِخْوَتَهُ لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ بِهِ) [يوحنّا . 7 : 5] .

4 . بخصوص عذراويّة (مريم) فلنتحدّث بعجالة عن ولادة (المسيح) العجيبة . نحن نعتقد بأنّ الناس في (الجليل) كانوا معتادين على خرافة حبل + ولادة عذراويّة من هذا القبيل ، و إلاّ كيف استساغوا بقاءه ثلاثين عامًا دون أيّ خوارق ، واكتفوا برؤيته نجّارًا أو يذهب مع أبيه إلى المعبد من أجل الصّلاة والعبادة والتراتيل .. ؟! وإن لم يكن أحدهم عرف بأنّه وُلِد عذراويًا – وهو الأكيد لأنّ القصّة ملفّقة – فما نفع القول بتلك الخرافة بعد قرابة قرنٍ دون أدلّة .. ؟!

أرى جازمًا أنّ المسيحيين الأوائل كانوا لا يقولون بتلك الأمور و إن هي إلاّ إضافات لاحقة ، إذ لم يذكر (العهد الجديد) أيّ إثبات للأمر .. بل أنّ كل ما تع رفه البشريّة حول تلك المسألة في (الإنجيل) و (القرآن) هو ما قالته (مريم) نفسها .. ونحن هنا لسنا في امتحان

أخلاقيّات وصدقيّة أحد ما ولا يعنينا أن نفعل إذ كُتبت الكتب في هذا و قيلت الأقوال التي تقشعر لها الأبدان . و لكننا نتساءل كيف يمكن أن تكون هكذا مسألة وهمية و مُختلَقة جزءًا مكوّنًا وهامًّا في العقيدة المسيحيّة .. ؟!

يقول المفكّر سيّد القمني : **(كان لقب أيّ إلهة خصب في الهلال الخصيب هو " البتول " ، وقد ترجمها البعض بالعذراء ، إلاّ أنّها لوجه الحق كانت تعني " غير المتزوّجة أو غير المرتبطة برجلٍ محدّدٍ بعينه " وهي نفسها صفه الأنثى في المجتمع الأمومي الغابر . وهي الصّفة التي حملتها الإلهة " مريم " في العقيدة المسيحيّة رغم أنجابها للمسيح و إخوته)** (36) .

و من هنا يمكننا أن نتحدّث عن الشّواهد التاريخيّة التي تقول لنا بأنّ قصص وخرافات الشّعوب في (بابل | آشور | فارس | مصر | الصين | الهند | اليونان) ملئية بالولادات العذراويّة و الخارقة مثل (زرادشت | بوذا | أوزيرس | تمّوز | ميثراس | إيتس ... إلخ) و بشكل يكاد يكون متطابقًا في ملامحه مع قصّة ولادة (المسيح) ، التي لُفّقت لتتلائم مع نبوءة (إشعيا) : **(اسْمَعُوا يَابَيْتَ دَ اوُدَ: أَمَا كَفَاكُمْ أَنَّكُمْ أَضْجَرْتُمُ النَّاسَ حَتَّى تُضْجِرُوا إِلَهِي أَيْضاً؟ . وَلَكِنَّ السَّيِّدَ نَفْسَهُ يُعْطِيكُمْ آيَةً : هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْناً، وَتَدْعُو اسْمَهُ عِمَّانُوئِيلَ)** [إشعيا . 7 : 13 – 14] . و أوّل ما يسأ ل به أيّ عاقل هو لماذا لم يُدعَ (المسيح) بـ (عمّانوئيل) (= الله معنا) ؟ ولماذا لا يريد البعض أن يؤمن بأنّ (إشعيا) كان يتحدّث عن زوال مُلك أعداء (آحاز بن يوثام) كما تدلّ قراءة هادئة للأصحاح السّابع من بدايته .. ؟!

لا أستطيع أن أقول – أمام هذا الزخم الإعجازي – سوى أنّ الإيمان بمعجزات من هذا النوع هو درجة متقدّمة من الشّلل العقلي .

5 . ما جدوى عملية الصّلب بكلّ محمولاتها الإنسانيّة و العاطفيّة وحتّى السّاديّة ؛ إذا كان المصلوب صاحب مشيئة قادرة على الاختيار و ربّما التحكّم بالألم كأن يكون إلهًا ! أو أنّه يعلم ما سيكون خلال المرحلة القادمة ، فينتفي عنصر الامتحان والصبر والشّك الذي هو عقل الأنبياء الأوّل . إنّ هذا التمكّن المريب من الغيب يزيد الأمر عوجا كما أرى . فما جدوى الحديث عن الطبيعتين أصلاً (اللاّهوت | النّاسوت) ؟ وما نفع (المسيح) إن لم يكن إنسانًا مثل بقيّة البشر يمكن أن يمثّل نموذجًا فكريًا لهم ؟ فالناس لا تتبع الآلهة القادرة بل البشرَ المميزينَ .

6 . قلنا سابقًا أنّ دعوة (المسيح) في حياته كانت سلميّة على الأغلب . و لكنّا نفاجأ بحادثة احتلال الهيكل : **(وَإِذِ اقْتَرَبَ عِيدُ الْفِصْحِ الْيَهُودِيُّ، صَعِ دَ يَسُوعُ إِلَى أُورُشَلِيمَ، فَوَجَدَ فِي الْهَيْكَلِ بَاعَةَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالْحَمَامِ، وَالصَّيَارِفَةَ جَالِسِينَ إِلَى مَوَائِدِهِمْ، فَجَدَلَ سَوْطاً مِنْ حِبَالٍ، وَطَرَدَهُمْ جَمِيعاً مِنَ الْهَيْكَلِ، مَعَ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ، وَبَعْثَ رَ نُقُودَ الصَّيَارِفَةِ وَقَلَبَ مَنَاضِدَهُمْ)** [يوحنّا . 2 : 13 – 15] . وقد ذهب الكثير من المفكّرين المهمّين – حين تناولوا تلك الحادثة – أمثال (كارل ستاوسكي) و (ج . كارمايكل) إلى أنّ (المسيح) كان يحضّر لتمرّد عنيف ثمّ احتلال لـ (أورشليم) بيد أنّه فشل في ذلك ، ولربّما كان هذا أحد أهم أسباب تعجّل اليهود في محاكمته من قبل (السنهدريم) (= المجلس اليهوديّ الأعلى) . و بالنسبة إلي فلا أجزم بقدر ما أستغرب دخول (المسيح) إلى الهيكل بشكل فوضوي حاملاً سوطًا ، فيما كان تلامذته بحسب بعض الروايات يحملون سيوفًا أو عصي أو أحجار (37) .

<u>**تنويه :**</u> بعض الكتّاب حاولوا إثبات فكرة الثورة لأغراض تختص بصراعات الأديان دون أن يكون للحقيقة التي ينشدها العقل أيّ دور أو غاية في كتاباتهم ، وقد تجاهلتُ آراءهم (38) .

7 . طالما احتوت الكتب الدينيّة لمختلف الأديان بعض المشاحنات التي تشير إ لى تحديّات قوبل بها الأنبياء . و من تلك الأمور ما هو منطقيّ و قد صادفه (المسيح) إذ كان معلّقًا على الصليب قبل أن يفارق الحياة : **(وَكَانَ الْمَارّةُ يَشْتُمُونَهُ، وَهُمْ يَهُزُّونَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ : يَاهَادِمَ الْهَيْكَلِ وَبَانِيَهُ فِي ثَلاَثَةِ أَيّامٍ، خَلِّصْ نَفْسَكَ! إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَانْزِلْ عَنِ الصّلِيبِ . وَسَخِرَ مِنْهُ أَيْضاً رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ وَالشُّيُوخُ، قَائِلِينَ : خَلّصَ غَيْرَهُ؛ أَمّا نَفْسَهُ فَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَ ! أَهُوَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ؟ فَلْيَنْزِلِ الآنَ عَنِ الصّلِيبِ فَنُؤْمِنَ بِهِ !)** [متّى . 27 : 39 – 42] . أظنّ بأنّه تحدٍ منطقيّ ولا يثير استغرابًا . ولو نزل (المسيح) عن الصّليب لآمنّا به جميعًا و انتهى الأمر وما كانت هناك حاجة لكتابة مقالي المطوّل هذا . وفي ذات الوقت عليّ أن أستذكر بعض التحديات غير المنطقيّة .. ومن جملة ذلك ما ورد في (القرآن) مثلاً : **(أَلَمْ تَرَ إِلَى الّذِي حَاجّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبّيَ الّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنّ اللّهَ يَأْتِي بِالشّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ)** [البقرة : 258] . والسّؤال الذي يطرح نفسه بلا رحمة هنا : لماذا لم يطلب (الّذِي كَفَرَ) (= النّمرود) من (إبراهيم) أن يأتي هو أو ربّه بالشّمس من المغرب .. فتنتهي القصّة نهايةً سعيدة .. ؟!

8 . لمعظم الأنبياء خرافة تختصّ بخطر الموت الوشيك ؛ و كيف أنّ أخبار السماء و الأوّلين قالت بظهور أحدهم . هذا هو واجب ملفّقي ومفبركي قصص الأنبياء في أن يبتدع وا بعض الأمور التي لا أشكّ بأنّ الأنبياء أنفسهم لو سمعوا بها لانفجروا ضاحكين . ومن ضمن ذلك مسألة تهديدات (هيرودوس الكبير) للمواليد الذّكور في (بيت لحم) . و بعيدًا عن تفنيدنا لفكرة ولادة (المسيح) في (بيت لحم) آنفًا ، وميلنا إلى أنّه وُلِد في (النّاصرة) .. سنقف بعجالة لنقول بأنّ في تلك العمليّة محاولة سقيمة من القوم لإضفاء شرعيّة معيّنة على صاحبهم . فكما اقتبس كتبة (العهد القديم) قصّة (سرجون الأكدي) و ألصقوها بـ (موسى) من ناحية (الإلقاء في الماء + الموت الوشيك) . فإنّ كتبة (العهد الجديد) طوّروا فكرة قتل المواليد الجدد الواردة بحقّ (موسى) في (التوراة) و قرنوها بـ (المسيح) في عمليّة أقلّ ما توصف به أنّها غير أمينة .. ناهيك عن استحالتها التاريخيّة .

خلاصة :

لقد احتاجت المسيحيّة إلى قرابة نصف قرن لتبدأ في تدوين الأناجيل بما هو لدينا الآن ، (إنجيل مرقس) في سنة 70 للميلاد . واحتاجت إلى قرابة أربعة قرون كي تشذّب الأسفار وترتّبها وتضيف وتحذف وتعتمد وتلغي بالشكل الذي وصلت إلينا به . و هذه الفترة كافية للتلاعب والزيادة والنقصان ، و بما أنّي أنظر إلى الأمور من هذا المنطلق ؛ فلا غرابة إذًا أن أرى بأنّ الرغبات السياسيّة والإحكام على رقاب الشّعب عبر الكنيسة قد إضطرّهم إلى تشويه بعض الملامح الجميلة في المسيحيّة الأصليّة و استبدلوها بعبادات الأمم و نزوات الأفراد و ما إلى ذلك . و عبر تلك التشويهات حدثت الانقسامات التي طالت الدين الجديد بتحوّله إلى مذاهب و ملل بدءًا بحادثة (بولس السميساطي) في القرن الثالث الميلادي و الذي رأى بأنّ المسيح إنسان . وبعده بقرابة قرن يلتقط (آريوس) هذا الرأي ليعلن فكرته القائمة على أنّ المسيح مخلوق .. و التي أدّت إلى نفيه بقرار من (مجمع نيقية) في القرن الرّابع الميلادي .. إنّما بقيت الأفكار وفق ما يع رف اليوم بالمذهب (الآريوسي أو الأرياني) والذي انشقت عنه وتوالدت منه عدّة مذاهب من أهمّها و أشهرها في وقتنا الرّاهن (شهود يهوه) .

ثمّ جاءت مرحلة الالتباس التاريخي الأكبر ؛ حيث لا يمكننا الجزم بسلامة نوايا أولئك الذين اختاروا بعض الأسفار دون سواها من شرور المطامع التي كانت تستعر .. خصوصًا أثناء اعتماد المسيحيّة كديانة رسميّة في الإمبراطوريّة الرومانيّة و ذلك لغايات سياسيّة في عهد (قسطنطين) الوثني الذي تمّ تعميده على فراش الموت . ثمّ الانشقاق الكبير الذي أعقب (مجمع خلقدونية) في منتصف القرن الخامس الميلادي والذ ي أدّى إلى انفصال الكنائس الشرقيّة عن هيمنة (روما) . ناهيك عن الانشقاق الأهم وهو ولادة المذهب اللوثري البروتستانتي في عام 1517 على يد المصلح الألماني (مارتن لوثر) . و الذي اجتهد في تصحيح مسار سفينة غارقة كما أرى .. و شارك أيضًا – للأسف – في تكريس الكثير من الخرافات .

ولو شئنا أن نختصر الديانة المسيحيّة الآن بسؤال واحد : ما هي ؟ فسنقول :

إنّ العقيدة المسيحيّة تقوم على الإيمان الكامل بأنّ (المسيح) يمثّل (اللّه) في تجلّيه الأكمل للعالم . ولد في (بيت لحم) من عذراءَ (مريم) حبلت به بلا دنس من الروح القدس . ومات على الصّليب في (القدس) من أجل خلاص البشريّة جمعاء . ثمّ قام في اليوم الثّالث من قبره ليصعد إلى السّماء واعدًا ببقائه مع العالم والمؤمنين به إلى الأبد .

هذا هو الخط العام للإيمان المسيحيّ الحالي . ولو قرنّاه بأقوال و أفعال (المسيح) الثّابت منها غير المنحول أو المنسوخ ، سنكتشف بأنّ العملية كلّها ستُنسف ولن يبقى منها سوى (مات على الصّليب) .

خاتمة :

الحقّ أقول لكم ؛

إنّ ما يؤمن به اليوم قُرابة ملياريْ مسيحيّ على اختلاف طوائفهم حول العالم لهو كولاج نافر لعدّة ديانات توحيديّة و وثنيّة . قد يكون أهون معالمها اق تباس عيد (ميثرا : إله الشمس القهّار) الذي يصادف 25 – كانون أوّل ، وجعله يومًا مزيّفًا لميلاد (المسيح) (39) .

و إنّ الحديث عن المسيحيّة على أنّها ديانة جديدة متكاملة لهو رأي مخادع ومراوغ . والأكثر خداعًا منه سيكون الحديث عن أنّنا نمتلك شيئًا واضحًا عن حقيق ة ما كان عليه (المسيح) .

و إنّ قارئ (العهد الجديد) الفطن و غير الملوّث بالإيمان الخرافيّ سيقول بعد انتهائه من تصفّح ما بين الدفّتين ؛ ما قاله (نيتشه) : **(إنّ حكايات القدّيسينَ هي الأدب الأكثر التباسًا وضلالة)** (40) .

محمد

الديك والبيضة :

يقول (علي الوردي) موفّرًا عليّ – ببراعته – جهدَ التقديم : **(كنتُ ذات يومٍ في مجلسٍ ضمّ جماعةً من رجال الدين . و قد أجمع هؤلاء الرّجال أثناء الحديث على أنّ سكّان الأرض كلّهم ملزمونَ بأن يبحثوا عن الدين الصحيح ، فإذا وجدوه اعتنقوه حالاً . فكلّ إنسانٍ في نظر هؤلاء مجبور أن يترك أعماله و يذهب سائحًا في الأرض ليبحث عن دين الحقّ . فقلتُ لهم : لماذا لم تسيحوا أنتم في الأرض للسّعي وراء الحقّ ؟ . قالوا وهم مندهشون لهذا السّؤال السّخيف : " إنّنا لا نحتاج إلى السّعي وراء الحقّ ؛ لأنّ الحقّ عندنا ")** (41) .

وهكذا ؛ فلن نجد – بسبب هذا الحقّ المضمون – من يقبل منّا التعاطي مع الأسئلة الفكريّة الصِّرفة ، والأخلاقيّة بطبيعة الحال ؛ حول قضايا الوحي والنسخ والسيف و الجزية و الفتح والذمة . ناهيك عن أنّه لو وُجِد من يقبل منّا هذا فسيكون (ديك الله) المهيّأ للدفاع عن (بيضة الإسلام) بكلّ ما أُوتي من (صِياح) .. ! !

مدخل :

لو أراد أحدهم توجيه سؤال صحيح إلى (الإسلام) (= التسليم والخضوع) كديانة كبرى : (ما الجديد ؟) . أظنّ بأنّ الإجابة الأصوب هي أنّ الجديد الذي أتى به (الإسلام) كان إعادة توليف وترتيب لأفكار خمسة أديان – على الأقل – في قالب واحد . و (القرآن) (= الكتاب المقروء) يعترف بهذا واضحًا : **(وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ)** [الشّعراء : 196 – 197] .

ومن هذا المنطلق ، أقول بأنّ هكذا هدف – أي توحيد ا لأديان – يكفي لشخصيّة مثل (محمّد) (= الرّجل حميد الخصال) وهو اسم نادر و لكنّه موجود لدى العرب و مستعمل قبل ولادة النبي (42) . أقول هذا الهدف يكفي للمغامرة بالدخول إلى عالم النبوّة و ما تجرّه من مصائر ثقيلة و متشابهة على معظم الأنبياء . و (محمّد) ليس مختلفاً عن هذا الخطّ في النهاية ، فمعاناته مع قومه في بدايات دعوته (الطور المكّي) كانت شبيهة بكلّ من سبقوه ، بل أنّها نسخة طبق الأصل في بعض المراحل . فهو في تلك الفترة كان أقرب إلى سلوكيّات (المسيح) رغم معلوماته البسيطة حول الأديان والمسيحيّة تحديدًا وقتذاك ، مع لوماته الحافلة بالأخطاء في بعض الأحيان بسبب تأثيرات القصص التلمودي . والتي تطوّرت عبر معلّمين لهم معرفة بالدين و التاريخ علّموه قصصًا من قبيل الإسكندر المقدوني و أهل الكهف و ما إلى ذلك (43) . أمّا في (الطّور المدني) حيث انتقل بدعوته إلى (يثرب) التي ستُدعى (مدينة رسول الله) وتُختصر بـ (المدينة) ، كان أقرب إلى أخلاقيّات دين (موسى) .

و لمّا كان لـ (موسى) شبه دولة مع شبه شعب مؤمن مع تشريعات فإنّ الأمر مختلف مع (محمّد) ، حيث تحقّق شرط الشعب المؤمن بشكل أقرب إلى الانقياد التّام . و (الدولة) بمعناها شبه الكامل في (المدينة) و المتكامل بعد عمليّة (فتح مكّة) . ثمّ (التشريعات) التي كانت تحكم هذه (الدولة) عبر الخطّ السّاخن بين السّماء و الأرض فيما يسمّى بـ (الوحي) . هكذا صارت المجموعة المستضعفة أمّةً و قوّةً تُهاب وصار (محمّد) نبيًّا و رئيسًا و جِنرالاً و أمسك بالسلطات الأربع في قبضته حتّى أنفاسه الأخيرة . ومن هنا قلتُ مرّةً لأحد أصدقائي الموهومين بتسامح (المسيح) : تخيّل (المسيح) يقود دولةً .. ثُمّ حدّثْني عن التسامح .. ! !

محمّد :

1 . كلّ شيءٍ كان عاديًّا في (مكّة) ؛ حتّى أنّ مولد فتىً في شهر نيسان من عام 570 مـ لم يُثر ضجّةً تُذكر . و من المهم هنا أن نقول بإنّه وُلِد بشكل طبيعيٍّ لأبوين معروفين ولعائلة نبيلة و معروفة ، ونشأ في بيئة معروفة ؛ و هو الأمر الذي يفتقر إليه صاحباه (موسى | المسيح) فلكلّ منهما مشكلة تختصّ بفترة الطفولة والولادة والانتساب .

2 . توفّي والده (عبد الله بن عبد المطّلب) قبل ولادته بشهرين ؛ إذ مرض في (يثرب) أثناء رحلة تجاريّة و دُفن فيها . ثم توفّيت والدته (آمنة بنت وهب) بسبب المرض أيضًا حين بلغ السّادسة من عمره . كفله جدّه (عبد المطّلب : شيبة الحمد بن هاشم بن عبد مناف) الذي هتف مرّة وهو يشير إلى أبنائه و أحفاده : **(إذا أراد الله إنشاء دولةٍ خلق لها أمثال هؤلاء)** (44) . ثم كفله عمّه (أبو طالب : عبد مناف بن عبد المطّلب) بعد وفاة جدّه حتّى بلغ أشدّه . وعمّه هذا هو الذي قال مفاخرًا يومًا :

من بني هاشمٍ وعبد منافٍ

وقصيّ أرباب أهلِ الحياةِ

حيُّهم سيّدٌ لأحياء ذا الخَلْـ

ـقِ ومن مات سيّد الأمواتِ (45) .

وهكذا نستطيع أن نتفهّم بيئة النشأة التي غرست على ما يبدو أخلاق القيادة في مخيّلة الفتى .

3 . كان يرعى غنم قريش مقابل اليسير يأخذه منهم أجرًا . ثمّ تعلّم فنّ التّجارة وسافر في رحلات تجاريّة كان لها أشدّ الأثر في تنظيم تفكيره و انتباهه إلى فكرة (الله) و (الدين) عبر اللّقاءات التي أجراها في الشام واليمن مع أناس لهم من أخبار الدين والسّماء والنبوءات الكثير (46) .

4 . حين بلغ الخامسة والعشرين من عمره تزوّج بـ (خديجة بنت خويلد) التي كانت تكبره بحوالي خمسة عشر عامًا . و أتّفق هنا مع (بروكلمان) في أنّ (محمّدًا) قد استغلّ الأعوام التالية و حتّى الأربعين من عمره في الدراسة و القراءة و البحث عن العلم و محاولة إدراك الحقيقة .. و التأمّل أيضًا ، إذ أنّ الرجل كان يجلس لأيّام في تأمّل لا يخالطه دنس الحياة النفعيّة خارج (غار حراء) ، لا يلوي على شيءٍ سوى تحويل دين قومه إلى ما يراه صوابًا .. ألا وهو عبادة إلهٍ واحدٍ . فمرحلة التأمّل تلك مهّدت إلى ما يسمّيه (وات) : **(التخيّل الخلاّق والإبداع في عقلية محمّد)** (47) .

5 . حين بلغ الأربعين من عمره أعلن أمره و عزم على أن يبلغ أقصاه .. و بشّر (مكّة) و قومه فيها فلم يتّبعه إلاّ قلّة لا تغني من شيء .

6 . في الخامسة و الأربعين من عمره يأمر أتباعه بالهجرة إلى (الحبشة) (= دول إرتريا وأثيوبيا حاليًّا) للنّجاة بدينهم ؛ إذ كان يعتبر دينه والمسيحيّة قريبينِ إلى الدرجة التي تجعل (النجاشي) يحميهم . وكان صائبًا في افتراضه ؛ فهاجر 82 شخصًا من ضمنهم ابنته (رقيّة) و زوجها (عثمان بن عفّان) .

7 . في التاسعة والأربعين من عمره يفقد أهم ركنين من أركان نصرته و دعمه ، حين مات عمّه (أبو طالب) و زوجته (خديجة بنت خويلد) .

8 . في الخمسين من عمره يحاول أن يبشّر (الطائف) بدعوته ؛ لكنّها استهترت به و أهانته وأغرت صبيانها بشتمه و ضربه .. فتأزّمت أوضاعه ولم يستطع العودة منها إلى (مكّة) إلاّ حين أجاره أحد أشراف قريش وسادتها (المطعم بن عدي) .

9 . في الثانية والخمسين من عمره يهاجر مع المؤمنين به إلى (المدينة) بعد أن بايعه ثلّة من الأوس والخزرج الذين ملّوا الحروب والثأر فيما بينهم . و هناك تبدأ بوادر الدولة الإسلاميّة الأولى . وبعدها بعامين يخوض حربه الاستباقيّة الكبرى ضد قريش ؛ معركة (بدر) و التي ستكون مفصليّة .

10 . في الخامسة والخمسين من عمره يُهزم في معركة (أُحُد) بشكل مأساوي ، ويتّضح له بأنّ سلطته على القلوب والعقول لم تكن بما يكفي .. كي يطمئنَّ لمن معه . وبعدها بعامين ينتصر على (الأحزاب) في معركة (الخندق) بالدهاء والخديعة ، وبوشايات (نعيم) و بخندق (سلمان) أيضًا .

11 . في الثّامنة والخمسين من عمره خسف الأرض باليهود ومنهم أهل (خيبر) ، و في ذات الحملة تمّت محاولة اغتياله الفاشلة بالسمّ .. والتي تركت آثارها على معدته وصحّته بشكل عام .

12 . في التّاسعة والخمسين من عمره يخسر خسارة شنيعة أمام البيزنطيين في (مؤتة) ، ولا ريب أنّها كانت مغامرة عسكريّة بكلّ المقاييس .

13 . في السّتين من عمره دخل (مكّة) فاتحاً فاكتملت دولته بجناحيها السّياسيّ والرّوحيّ .

14 . في الثّانية والسّتين من عمره يحجّ (حجّة الوداع) وبعدها بفترة تعتلّ صحّته التي يعزوها أهل التاريخ إلى سببين لا ثالث لهما : إمّا السمّ الذي أطعمه في (خيبر) ومفعوله الذي دمّر على فترة طويلة جهازه الهضمي . أو أنّه أُصيب بالملاريا وذلك يتوافق مع أخبار (الحمّى) التي أصابته قبيل وفاته .

15 . في الثّامن من حزيران عام 622 مـ توفّي (محمّد) عن اثنين وستّين عامًا بعد أن ترك لأتباعه دولةً ودستورًا و حلمًا بناه فعليًّا في عشر سنوات فقط . وقد أجمع أهل السيرة – تقريبًا – أنّ آخر عبارة قالها كانت رقيقة جدًّا : (اللّهم اغفر لي) .

لماذا القرآن فقط ؟

لسائل أن يسأل لماذا لا أقوم بمناقشة السّلوك الإسلامي منطلقًا من السّنّة و الأحاديث النبويّة أيضًا .. ولماذا أكتفي بـ (القرآن) فقط ؟ والإجابة – في رأيي – بسيطة ؛ حيث أنّ هذا (القرآن) هو محلّ إجماع المسلمين بكافّة مشاربهم ومذاهبهم .. و إنْ حدث وكانت هناك إشارات مخالفة لهذا الإجماع فهي أقلّ من أن تُذكر . أمّا (السّنّة) ففيها كلام طويل وجدل أطول ، حيث لا يوجد كتاب واحد يتّفق عليه المسلمون كمعيار يحدّد الأحاديث الصحيحة غير الموضوعة بحسب رأيهم .

ومن المهم أيضًا أن نعرف بأنّ تدوين هذه الأحاديث والأفكار كان ممنوعًا بتوجيه صارم من النّبي نفسه : **(لاَ تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ وَحَدِّثُوا عَنِّي وَلاَ حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَ لَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)** [مسلم . كتاب الزّهد و الرقائق : 7702] . و أيضًا : **(لَا تَكْتُبُوا عَنِّي شَيْئًا سِوَى الْقُرْآنِ وَمَنْ كَتَبَ شَيْئًا سِوَى الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ)** [المسند . المجلّد الثالث : 10663 | الدارمي . كتاب المقدّمة : 451] .

وبقي الأمر هكذا حتّى نهايات القرن الأوّل الهجري ، وتحديدًا في فترة حكم (عمر بن عبد العزيز) الذي قام بإصلاحات من ضمنها منع شتم (علي بن أبي طالب) على المنابر الأمويّة إذ كان قد استمر قرابة السّبعين سنة . وأيضًا أمر عُمّاله بتقصّي أحاديث النبيّ و تدوينها نقلاً عن الرّجال الصادقين (48) .

من هنا بدأت الحكاية ؛ وصار كلّ من مرّ على النّبي مرورًا ذات مساءٍ عابرٍ يروي أحاديث يُؤخذ بها حينًا وتُهمل حينًا آخر ، إذ لم تكن مفردة (الصّحابي) بشروطها المعروفة قد توفّرت حينذاك . وإن كنتُ ما زلتُ أرى بأنّ مفهوم ا لصّحابي غامضٌ و مبهمٌ لا نكاد نقف على حقيقته في كتب القوم إلاّ بصعوبة . وكيف لا و ها هو (البخاري) يعرّفه : **(كلّ من صحب النبّي أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه)** (49) . وبلفظ مقارب يقول (العسقلاني) : **(الصّحابيّ هو من لقي النّبي مؤمناً به ومات على الإسلام)** (50) .

عمومًا ؛ بدأتْ كتب الصّحاح فيما بعد بالظهور ، و كان أوّلها (الموطّأ) لـ (مالك بن أنس بن مالك) في عام 91 هـ . ثمّ بعده بقُرابة المئة عام ظهرت كتب (صحيح البخاري) و (صحيح مسلم) .. إلخ . و في الواقع إنّ القارئ المتبحّر في تلك الكتب يمكنه مصادفة أحاديث تسيء إلى النّبي شخصيًّا ، وترفع من شأن الأُمويّين على سبيل المثال . و يمكنه أن يلحظ تجنّيًا تاريخيًّا مجحفًا فيما يسمى بـ (أحاديث المناقب) . و بالطبع يمكنه أن يصادف بعض الأحاديث الغريبة أو المضحكة و المؤلمة في آن ، و التي سآتي على بعضها لاحقًا . لذا فلن نستغرب لو عرفنا أنّ (أحمد بن حنبل) يقول عن مسنده : **(كتاب جمعته و انتقيته من 750 ألف حديث)** . علمًا بأنّ مسنده هذا يحتوي على قُرابة 40 ألف حديث منسوب إلى النّبي .

ومن هنا يمكننا أن نستأنس بما أشار إليه (علي الوردي) – دون أن يفقد روحه المرحة – حول هذا المناخ المرعب في تدوين الأحاديث و تلفيقها ، قائلاً : **(جاء في بعض الأحاديث المأثورة أنّ النّبي قال " أنا مدينة العلم و عليٌّ بابها " . فامتعض من هذا الحديث بعضهم حيث شعروا بأنّ مدْحَ عليٍّ معناه ثلب أبي بكر فجاءوا بحديث مقابل هو " أنا مدينة العلم و أبو بكر محرابها " . وصعب على آخرين أن لا يكون لغير أبي بكر مثل هذا الفضل فجاءوا بحديث ثالث هو " أنا مدينة العلم و أبو بكر أساسها و عمر حيطانها و عثمان سقفها و عليٌّ بابها " . و أضاف بعضهم إلى ذلك حديثًا رابعًا هو " أنا مدينة العلم و عليٌّ بابها و معاوية حلقتها " . و جاء ابن الجوزي بعدهم فنسف الحديث كلّه بأساسه وحيطانه وسقفه و بابه وحلقته أيضًا . وكأنّه خشي أن يمطط الحديث فيشمل جميع الصحابة ، فيكون مروان مزراب المدينة و أبو سفيان بالوعتها)** (51) .

رغم كلّ هذا يتّفق المسلمون في أنّ للصّحابة منازل و مراتب . و هم عند أهل السّنّة والجماعة عدول ؛ عشرة في المقام الأوّل ، أربعة خلفاء يُسمّون بـ (الرّاشدين) و هم أفضل النّاس بعد النبيّ في رأيهم . و ينضمّ إليهم ستّةٌ آخرون ليشكّلوا ما يُعرف بـ (العشَرة المبشّرين بالجنّة) وكلّهم من (قُريش) :

أبو بكر بن أبي قحافة ، عمر بن الخطّاب ، عثمان بن عفّان ، علي بن أبي طالب ، الزّبير بن العوّام ، طلحة بن عبيد الله ، عبد الرحمن بن عوف ، سعد بن أبي وقّاص ، أبو عبيدة بن الجرّاح ، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (= ابن الشّاعر و الموحّد الشّهير) .

في حين ترى (الشّيعة) الإماميّة الإثنا عشريّة أنّ الأهميّة وا لقيادة بعد النبيّ هي لآل بيته في نسل (عليّ | فاطمة) وعددهم أحدَ عشر إمامًا – خلا عليًّا – نُصّ عليهم كما يرونَ . بل ويقولون في عصمتهم وأنّهم لا ينقصهم من مقام النُّبوّة سوى الوحي . و يرون أنّ بعض الصّحابة الذين يوقّرهم أهل السّنّة مثل الخلفاء الثلاثة الأوا ئل (أبو بكر | عمر | عثمان) وتحديدًا الخليفة الثالث ؛ هم سبب الانحراف الذي أصاب الدين الإسلامي . وعليه فهم يرفعون من مقام صحابةٍ آخرين ويقولون إنّ الجانب السياسي طغى على الحقيقة فلم ينصفهم ، من أمثال :

عمّار بن ياسر ، أبو ذر الغفاري ، سلمان الفارسي ، حذيفة بن اليمان ، المقداد بن الأسود ، جابر بن عبد الله ، بلال بن رباح .. وغيرهم .

وكذا في مسألة (النساء) فالشّيعة يروْنَ أنّ محاولة إبراز (عائشة | حفصة) ما هي إلاّ وسيلة لضرب الخطّ النبويّ المتمثّل في (خديجة | فاطمة) . بل الأدهى من ذلك ؛ وفي حالة تُبيّن مقدار التزمّت الذي تؤدّي إليه الأديان و المذاهب ، أنّ بعض علماء الشيعة – ربّما أغلبهم – لا يعترفون بأنّ للنّبي بناتٍ غير (فاطمة) . و يقولون عن زوجتيْ (عثمان) (رقيّة | أمّ كلثوم) أنّهما ربيبتا النّبي إذ كان قد تبنّاهما وليستا من نسله . وربّما كانتا لـ (خديجة) من زواج سابق أو لإحدى قريباتها . و لهم في ذلك أدلّة ، كما يعارضهم أهل السّنّة بأدلّتهم . و بالنسبة إلي فأنا أستغرب حقيقةً هذا الأمر ولا أجده مهمًّا كي يضيعوا فيه أوقاتهم . و لكي

لا نخوض في متاهات المذاهب ، فإنّ الخلاف حول مسألة (الصّحابة) يكمن في أمرين ؛ أولهما فقهيٌّ : **(أهل السّنة يقولون بعدالة كلّ الصحابة بالمعنيين اللغوي والاصطلاحي . وأهل الشّيعة يقولون بعدالة المتصف بالعدالة من الصحابة فقط)** (52) . و الثّاني عشائريٌّ لا يخلو من جانب أخلاقيٍّ إذ نجد بأنّ صاحب الشّأن الأهم في هذا النّزاع (علي بن أبي طالب) يحسم الإطالة قائلاً لخصمه (معاوية بن أبي سفيان) قولاً أراه يختصر الأمر ويعطي القارئ جوهر المسألة : **(ليس أميّة كهاشم. ولا حرب كعبد المطّلب. ولا أبو سفيان كأبي طالب. ولا المهاجر كالطليق . ولا الصريح كاللّصيق . ولا المحقّ كالمبطل . ولا المؤمن كالمدغل. ولبئس الخلف خلف يتبع سلفاً هوى في نار جهنم، وفي أيدينا بعد فضل النُّبوّة ... إلخ)** (53) .

و الآن ؛ نعود إلى (الصّحابة) ونبحث فيما أُسند عنهم في كتب الصّحاح (السّنيّة) الكبرى وسأركّز على (البخاري) ، لنجد :

أبو بكر بن أبي قحافة : 22 حديثًا في (البخاري) .

عمر بن الخطّاب : حوالي 20 حديثًا في (البخاري | مسلم) .

عثمان بن عفّان : 14 حديثًا في (البخاري | مسلم) .

علي بن أبي طالب : حوالي 20 حديثًا في (البخاري | مسلم) .

الزّبير بن العوّام : 10 أحاديث في (البخاري | مسلم) .

طلحة بن عبيد الله : 4 أحاديث في (البخاري) .

عبد الرحمن بن عوف : 9 أحاديث في (البخاري) .

أبيّ بن كعب : حوالي 60 حديثًا في مجمل الصّحاح .

زيد بن ثابت : 8 أحاديث في (البخاري) .

سلمان الفارسي : 7 أحاديث في (البخاري | مسلم) .

فاطمة بنت محمّد بن عبد الله : حديث واحد في (البخاري) .

عمّار بن ياسر 4 أحاديث في (البخاري) .

بلال بن رباح 3 أحاديث في (البخاري) .

المقداد بن الأسود حديث واحد في (البخاري) .

أبو ذر الغفاري 14 حديثًا في (البخاري) ... إلخ .

وهكذا ؛ فإنّ الصّحابة المهمّين لم يؤخذ عنهم مجتمعين الشيء الكثير وهم الأولى بالرواية عن (محمّد) . في حين أنّه قد نُقل عن كلٍّ من (أنس بن مالك) و (عائشة بنت أبي بكر) أكثر من 2300 حديث في مختلف الصّحاح . و أنّ رجلاً كـ (أبي هريرة) صاحبَ النّبي لأقلّ من عشرين شهرًا قد أُخذ عنه قُرابة 500 حديث في (البخاري) وحده . بل أنّ مسند (بُقي ابن مخلّد) قد احتوى على 5374 حديثًا لـ (أبي هريرة) . و أنّه – أي أبو هريرة – قال يومًا : **(لو أنبأتكم بكلّ ما أعلم [يقصد ما يعلم عن حديث النبي] لرماني الناس بالبعر وقالوا عني مجنون)** . و من ضمن الأعاجيب أيضًا أنّ صحابيًّا كان يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة حين مات النّبي و اسمه (عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب) ويُختصر بـ (ابن عبّاس) يروي قُرابة 1700 حديث . (54) .

أمّا (الشّيعة) الإماميّة الإثنا عشريّة فقد تجنّبوا هذا المطبّ ؛ فهم لا يحتاجون إلى سند في الرواية عن النّبي ، ويكفي أن يوصلوا ما يريدون قوله إلى قول أحد الأئمة الإثني عشر (قال عن رسول قال : ...) فتكون الرواية كاملة تامّة السند و صادقة . و لك أن تتخيّل – عزيزي القارئ – كيف يميل دين أهل السياسة مع الهوى . وبما أنّ الخلاف سياسيٌّ

محضٌ ، تفجّر بسبب التعطّش إلى السُّلطة والحكم ، فإنّ لكل فريق حصّته في التزوير والتلفيق والتدليس . غير أنّ (الشّيعة) يمتازون على غ يرهم من الفرق بأنّهم لا يجزمون بصحّة أحاديثهم .. وهو الأمر الذي يختلفون فيه مع (السّنة) الذين يعتبرون كلّ ما ورد في صحيحي (البخاري | مسلم) على سبيل المثال صادق و مطابق لأقوال النّبي و أفعاله : **(إنّ السّلف والخلف قد أطبقوا على أنّ أصح الكتب بعد كتاب الله سب حانه وتعالى صحيح البخاري ، ثم صحيح مسلم)** (55) .

وكي أكون أكثر وضوحًا ؛ سأوجز بعضًا من أعاجيب الفريقين ممّا تعجّ به الكتب والمواقع و تلهج به الألسن لشهرته .. ليوضّح سبب زهدي بمنقولات الفريقين ، مع تفسيرٍ لمعاني بعض الكلمات التي قد تصعب على القارئ :

في الجانب السّني :

(اختتن إبراهيم بعد ثمانين سنة ، و اختتن بالقدوم) [البخاري . كتاب الاستئذان : 6371 | مسلم . كتاب الفضائل : 6290] . (القدوم = آلة حادّة للنّحت أو النّجارة) .

(قال رسول الله : قال سليمان لأطوفنّ الليلة على تسعين امرأة، كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله. فقال له صاحبه إن شاء الله . فلم يقل إن شاء الله . فطاف عليهن جميعا، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، وأيم الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله . لجاهدوا في سبيل الله ...) [البخاري . كتاب الإيمان والنذور : 7559 | مسلم . كتاب الإيمان : 4376] . (شق رجل = نصف رجل أو خلق غير مكتمل) .

(خلق الله آدم وطوله ستّون ذراعًا ...) [البخاري . كتاب أحاديث الأنبياء : 3361] . (ستّون ذراعًا = حوالي 42 مترًا) .

(قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة . فبدّلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا حبة في شعرة) [البخاري . كتاب أحاديث الأنبياء :3439] . (الاست = العجز أو المؤخّرة) . (المراد من " حبّة في شعرة " هو أنّ اليهود غيّروا ما أُمروا بقوله عند الدخول وعاندوا) .

(قال رسول الله : إنّ موسى كان رجلا حييًّا ستيرًا، لا يُرى من جلده شيء ، استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما برص وإما أدرة وإما آفة . وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتّى انتهى إلى ملأٍ من بني إسرائيل، فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون،

وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضربا بعصاه ...) [البخاري . كتاب أحاديث الأنبياء : 3440] .

(حدّثنا أنس بن مالك ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار، وهن إحدى عشرة . قال قلت لأنس : أوكان يطيقه ؟ قال : كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين) [البخاري . كتاب الغسيل : 269] .

(عن عبد الله بن عمر، قال : ارتقيت فوق ظهر بيت حفصة ل بعض حاجتي، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي حاجته مستدبر القبلة مستقبل الشام) [البخاري . كتاب الوضوء : 148 | مسلم . كتاب الطهارة : 635] .

(عن أبي سعيد الخدري، قال : أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنتوضأ من بئر بُضاعة وهي بئر يطرح فيها الحيض و لحم الكلاب والنتن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الماء طهور لا ينجسه شيء ") [سنن أبي داود . كتاب الطهارة : 66] .

(عن مالك بن حمزة بن أبي أسيد الساعدي الخزرجي عن أبيه عن جده أبي أسيد : وله بئر بالمدينة يقال لها: بئر بُضاعة قد بصق فيها النبي صلى الله عليه وسلم فهو يبشر بها ويتيمن بها) [مجمع الزّوائد لـ الهيثمي : 5906 . قال : رواه الطبراني و رجاله ثقات] .

(خرجنا وفدًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه وصلينا معه وأخبرناه أن بأرضنا بيعة لنا فاستوهبناه من فضل طهوره فدعا بماء فتوضّأ وتمضمض ثم صبه في إداوة وأمرنا فقال " اخرجوا فإذا أتيتم أرضكم فاكسروا بيعتكم وانضحوا مكانها بهذا الماء واتخذوها مسجدا ...) [النسّائي . كتاب المساجد : 709] .

(قال : " ادعوا لي عليًّا " . فأُتي به أرمدَ فبصق في عينه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه ...) [مسلم . كتاب فضائل الصّحابة : 6373] .

(عن أم أيمن قالت : قام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم من الليل إلى فخّارة له في جانب البيت فبال فيها فقمت من الليل وأنا عطشانة فشربت ما فيها وأنا لا أشعر فلما أصبح النبي صلى اللَّه عليه وآله وسلم قال : يا أم أيمن قومي فأهريقي ما في تلك الفخارة قلت: قد واللَّه شربته قال : فضحك رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال : أما واللَّه لا يبعجن بطنك أبدًا) [نيل الأوطار لـ الشّوكاني ج 1 . باب البول في الأواني : 1 | التلخيص الحبير لـ العسقلاني . كتاب الطه ارة . باب بيان النّجاسات] . (البعج = الشّق أو الثّلم) .

(إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله لما قضى خلقه استلقى، فوضع رجله على الأخرى وقال : لا ينبغي لأحد من خلقي أن يفعل هذا ". فقال أبو سعيد : والله لا أفعله أبداً) [مجمع الزّوائد لـ اله يثمي : 13182 . رواه الطبراني] .

(عن عبد الله بن الزبيرأنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحتجم فلما فرغ قال : يا عبد الله! اذهب بهذا الدم فاهرقه حتى لا يراك أحد – وفي لفظ: فواره حيث لا يراه أحد – فلما برز عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عمد الى الد م فشربه، فلما رجع قال : يا عبد الله ! ما صنعت؟ قال جعلته في أخفى مكان علمت أنه خاف عن الناس، قال : لعلك شربته؟ قلت نعم، قال : ولم شربت الدم؟ ويل للناس منك وويل لك من الناس؛ قال أبو عاصم: كانوا يرون أن القوة التي به من ذلك الدم) [كنز العمّال لـ المتّقي الهندي : 37228] . (احتجم = أخرج الدّم الزّائد) .

(قال عروة عن المسور ومروان : خرج النبي صلى الله عليه وسلم زمن حديبية فذكر الحديث : ما تنخم النبي صلى الله عليه وسلم نخامة إلاّ وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده) [البخاري . كتاب الوضوء . بلب البزاق والمخاط : 241] . (النخامة = المخاط) .

(جاءت سهلة بنت سهيل وهي امراة أبي حذيفة وهي من بني عامر بن لؤى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله كنا نرى سالما ولدا وكان يدخل عليّ وأنا فضل وليس لنا إلا بيت واحد فماذا ترى في شأنه فقال لها ر سول الله صلى الله عليه وسلم " أرضعيه خمس رضعات فيحرم بلبنها " . وكانت تراه ابنا من الرضاعة فأخذت بذلك عائشة أم المؤمنين فيمن كانت تحب أن يدخل عليها من الرجال فكانت تأمر أختها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق وبنات أخيها أن يرضعن من أحبت أن يدخل عليها من الرجال وأبى سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخل عليهن بتلك الرضاعة أحد من الناس وقلن لا والله ما نرى الذي أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم سهلة بنت سهيل إلا رخصة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في رضاعة سالم وحده لا والله لا يدخل علينا بهذه الرضا عة أحد فعلى هذا كان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في رضاعة الكبير) [الموطّأ . كتاب الرضاع : 1287] .

في الجانب الشّيعيّ :

(عن أبي جعفر عليه السّلام قال : للإمام عشر علامات : يولد مطهرا ، مختونا ، وإذا وقع على الأرض وقع على راحته رافعا صوته بالشهادتين ، ولا يج نب ، وتنام عينه ولا ينام قلبه ، ولا يتثاءب ولا يتمطى ، ويرى من خلفه كما يرى من أمامه ، ونجوه كرائحة المسك والأرض موكلة بستره وابتلاعه ، وإذا لبس درع رسول الله صلى الله عليه وآله كانت عليه وفقا وإذا لبسها غيره من الناس طويلهم وقصيرهم زادت عليه شبرا ، وهو محدث إلى أن تنقضي أيامه) [الكافي لـ الكليني ج 1. كتاب الحجّة :8 | 388] . (النجو = الفُساء أو الغائط) .

(عن آبائه عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : [...] كره النظر إلى فروج النساء وقال : يورث العمى ، وكره الكلام عند الجماع وقال : يورث الخرس ....) [من لا يحضره الفقيه لـ الصّدوق ج3 . باب النّوادر : 4914] .

(عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : سمعته يقول : وذكر مصر فقال : قال النبي صلى الله عليه وآله : لا تأكلوا في فخارها ولا تغسلوا رؤوسكم بطينها فإنه يذهب بالغيرة ويورث الدياثة) [الكافي لـ الكليني ج6 . كتاب الأطعمة : 9 | 386] . (الديوث = رجلٌ لا يغار على أهله) .

(عن أبي عبدالله عليه السلام قال : من عطس ثم وضع يده على قصبة أنفه ثم قال : " الحمدلله رب العالمين [الحمدلله] حمدا كثيرا كما هو أهله وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم " خرج من منخره الايسر طائر أصغر من الجراد وأكبر من الذباب حتى يسير تحت العرش يستغفر الله له إلى يوم القيامة) [الكافي لـ الكليني ج 2 . كتاب العِشرة : 22 | 657] .

(قال الصادق عليه السلام : فلا يدخل الجنة من البهائم إلا ثلاث : حمار بلعم بن باعوراء، و ذئب يوسف، وكلب أصحاب الكهف) [بحار الأنوار لـ المجلسي ج 14 : ص423] .

(ذكر أمير المؤمنين عليه السلام أن أول شيء من الدواب توفي عفير ساعة قبض رسول الله صلى الله عليه وآله قطع خطامه ثم مر يركض حتى أتى بئر بني خطمة بقباء فرمى بنفسه فيها فكانت قبره . وروي أن أمير المؤمنين عليه السلام قال : إن ذلك الحمار كلم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : بأبي أنت وامي إن أبي حدثني، عن أبيه، عن جده، عن أبيه أنه كان مع نوح في السفينة فقام إليه نوح فمسح على كفله ثم قال : يخرج من صلب هذا الحمار حمار يركبه سيد النبيين وخاتمهم، فالحمد لله الذي جعلني ذلك الحمار) [الكافي لـ الكليني ج1 . كتاب الحجّة : 9 | 237] .

(عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إن الحسن عليه السلام قال : إن لله مدينتين إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب، عليهما سور من حديد وعلى كل واحد منهما ألف ألف مصراع وفيها سبعون ألف ألف لغة، يتكلم كل لغة بخلاف لغة صاحبها وأنا أعرف جميع اللغات وما فيهما وما بينهما، وما عليهما حجة غيري وغير الحسين أخي) [الكافي لـ الكليني ج1 . كتاب الحجّة : 5 | 462] .

(عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله كان يؤتى به الحسين فيلقمه لسانه فيمصه فيجزئ به ولم يرتضع من أنثى) [الكافي لـ الكليني ج 1 . كتاب الحجّة : 4 | 465] .

(... الثاني: اختصم خارجي وامرأة إليه [إلى : علي بن أبي طالب] فعلا صوته فقال له عليه السلام: اخسأ، فإذا رأسه رأس كلب فقيل له ما يمنعك عن معاوية إذا؟ فقال : بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. ونحو ذلك روى الأصبغ بن نباتة في رجل آخر ونحوه أيضا فعل بخارجي فدمعت عيناه فرق له فدعا الله تعالى فعاد إلى الانسانية وتراجعت ثيابه من الهوى وقد كانت طارت عنه.

الثالث: أحيا [علي بن أبي طالب] رجلاً من بني مخزوم صديقا له فقام وهو يقول : (وينه وينه نبيالا) يعني لبيك لبيك سيدنا فقال له عليه السلام : ألست عربيا قال : بلى، ولكني مت على ولاية فلان وفلان فانقلب لساني إلى لسان أهل النار ...) [الصراط المستقيم لـ البياضي ج1 : 105]

(قال رجل لأمير المؤمنين : يا أمير المؤمنين إن في بطني ماءً أصفر فهل من شفاء؟ قال : اكتب على بطنك آية الكرسي وتغسلها وتشربها وتجعلها ذخيرة في بطنك فتبرأ بإذن الله عز وجل. ففعل الرجل فبرأ) [الكافي لـ الكليني ج2 . كتاب فضائل القرآن : 457] .

(ليس في بول الأئمة وغائطهم استخباث ولا نتن ولا قذارة بل هما كالمسك الأذفر، بل من شرب بولهم وغائطهم ودمهم يحرم الله عليه النار واستوجب دخول الجنة) [أنوار الولاية لـ الكلبايكاني : 440] . (الأذفر = رائحة حادة) .

(عن زين العابدين قال : إن لله ملَكاً يقال له خرقائيل له ثمانية عشر ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام) [البرهان لـ البحراني ج2 : 327] .

(قال أبوعبدالله ع ليه السلام : لما أن وجه صاحب الحبشة بالخيل ومعهم الفيل ليهدم البيت، مروا بإبل لعبد المطلب فساقوها، فبلغ ذلك عبدالمطلب فأتى صاحب الحبشة فدخل الأذن، فقال: هذا عبدالمطلب بن هاشم قال: وما يشاء؟ قال الترجمان: جاء في إبل له ساقوها، يسألك ردها فقال ملك الحبشة لاصح ابه: هذا رئيس قوم وزعيمهم جئت إلى بيته الذي يعبده لأهدمه وهو يسألني إطلاق إبله، أما لو سألني الإمساك عن هدمه لفعلت، ردوا عليه إبله، فقال عبد المطلب لترجمانه : ما قال لك الملك؟ فأخبره، فقال عبدالمطلب: أنا رب الإبل و لهذا البيت رب يمنعه، فردت إليه إبله وانصرف عبدالمطلب نحو منزله، فمر بالفيل في منصرفه، فقال للفيل : يا محمود فحرك الفيل رأسه، فقال له: أتدري لم جاؤوا بك؟ فقال الفيل برأسه: لا، فقال عبدالمطلب: جاؤوا بك لتهدم بيت ربك ، أفتراك فاعل ذلك؟ فقال برأسه: لا، فانصرف عبدالمطلب ...) [الكافي لـ الكليني . كتاب الحجّة : 25 | 447] .

(عن أبي عبدالله عليه السلام قال : لما ولد النبي صلى الله عليه وآله مكث أياما ليس له لبن، فألقاه أبوطالب على ثدي نفسه، فأنزل الله فيه لبنا فرضع منه أياما حتى وقع أبوطالب على حليمة السعدية فدفعه إليها) [الكافي لـ الكليني . كتاب الحجّة : 27 | 448] .

(إنّ من علامات ظهور المهدي أنه سيظهر عاريا أمام قرص الشمس) [حقّ اليقين لـ المجلسي : 347] .

(عن أبي جعفر عليه السلام قال : لما ولدت فاطمة عليها السلام أوحى الله إلى ملك فأنطق به لسان محمد صلى الله عليه وآله فسماها فاطمة، ثم قال: إني فطمتك بالعلم وفطمتك من الطمث، ثم قال أبوجعفر عليه السلام : والله لقد فطمها الله بالعلم وعن الطمث في الميثاق) [الكافي لـ الكليني . كتاب الحجّة : 6 | 460] .

سأكتفي بهذا المشهور للعامة من الناس و لن أخوض فيما يسمّى بـ (الأحاديث القدسيّة) لأنّها في أغلبها مقتبسة عن نصوص (العهد الجديد) . لذا أيّها السّيّدات و السّادة ؛ رأيت أنّ اللجوء إلى أدلّة من كتب القوم سيضعف رأيي ، فآثرت أن أكتفي بـ (القرآن) حين الاقتباسات الهامّة للحديث عن الإسلام .

و (القرآن) كلمة تعني الكتاب الذي يُقرأ أو المقروء بكثرة كما أسلفنا . ويرى المسلمون كما قال بذلك (محمّد) أنّ هذا الكتاب هو المعجزة الأبديّة والخالدة و الدّالة على ثبات أركان هذا الدين ومصدره السماويّ الصافي . وأنا أرى بأنّ هذا القول غير دقيق بما يجعل نقد (القرآن) مدخلاً يخدم الراغبين في نقد (الإسلام) برمّته ، لأنّ بعض آيات (القرآن) غير مقبولة عقلاً وروحًا وأخلاقًا . وفي هذا الكتاب نجد حكمةً لا تخفى عن (التوراة | الإنجيل) أيضًا .. وهذا أمر طبيعي في تلك الكتب التي تخاطب الناس عاطفيًّا لأنّها تدعي نزولها من الأعلى . ونجد فيه لغة لطيفة من الناحية الأدبية وفقًا لمعايير اللغة والخطاب الشعريّ العربي في القرن السّابع الميلادي وليس الآن بالطبع . و نجد أيضًا كما في سابقيْه مغالطاتٍ و أحكامًا غير طيّبة ، و أخطاء تعبيريّة في بعض الأحيان ، و عشوائيّة في تناول الحوادث والظواهر الكونية .

الإعجاز العلمي كونه خرافةً :

أظنّ بأنّ أحد أهم أسباب عزوف المسلمين عن الإسلام ولو في الخفاء ، هو التأويل الإعجازي للنّص القرآني . وهو الإعجاز الفعلي كما أرى و الأهم والأكثر إثارةً للجدل .. لأنّ المفسّرين يقولون للمؤمنين بالقرآن ، وعبر تفاسيرهم : **(أنتم أغبياء و نحن سنفسّر لكم ما استعصى عليكم)** .

ولما كانت الغاية من تلفيق المعجزات العلميّة في القرآن كأصل سبق عصره وقال بما يكتشفه العلم الآن .. أقول لما كانت الغاية هي رفع شأن الدين والدعوة إليه ، فقد صارت سببًا في انتقاد الدين واتّهام المهيمنين عليه بالفراغ الفكري . ولعلّ أهم ما يتبجّح به الإعجازيّون القرآنيّون هما مسألتا الأجنّة و الفلك . وسأتحدّث عنهما بسرعة :

فيما يخصّ الأجنّة ، يقول القرآن : **(فَلْيَنْظُرِ الإنْسانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ ماءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَينِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ)** [الطّارق : 5 – 7] . والواضح لدينا إنّ الماء الدافق هو إفرازات الرجل والمرأة . و إفراز الرجل يخرج من (الصّلب) أي الظّهر كما كانوا يتوقّعون . و إفراز المرأة يخرج من (الترائب) ومفردها (تريبة) أي الصدر كما كانوا يتوقّعون . والعلم يقول بأنّ الجنين يخلق من تلقيح الحوين المنوي الذكري للبويضة الأنثوية التي يلتقيها في قناة (فالوب) . و الحيوانات المنويّة – وهي بمئات الملايين – لا تخرج بأي شكل من الأشكال من الظهر و لا تمرّ به . أمّا الماء فهو لتوفير الوسط السابح و الحماية وليس لأنّه أساس التلقيح وهو لا يُفرز من الظهر ولا حتّى من الخصيتين بل من الحويصلة المنوية و البروستاتة . أما ماء المرأة الذي يأتينا دافقًا من صدرها (الترائب) فلا أحد يعلم على وجه الدقة حتّى اللحظة ما هو و ماهي أهميّته وكيف يمكنه أن يساعد في التلقيح و تكوين الأجنّة .. و لربّما كان سبقًا علميًّا ستكتشفه البشريّة بعد ألفيْ عام .

و يقول ا القرآن : **(يَخْـلُقُكُمْ فِـي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَـلْقاً مِنْ بَعْدِ خَـلْقٍ فـي ظُلُـماتٍ ثَلاثٍ)** [الزّمر : 6] . ونودّ القول بأنّ المفسّرين اتّفقوا على أنّ الظلمات الثلاث هنا هنّ (البطن | الرحم | المشيمة) . و إذا كان العلم يقبل منهم الأولى والثانية على اعتبارهما مقولة لا تحتاج إلى فطنة كبيرة بقدر ما تحتاج إ لى تعبير شاعريّ كان (محمّد) أبله . فإنّه – أي العلم – يقف مذهولاً من مسألة (المشيمة) خاصّة وأنّها لا تحجب الضّوء .. بل هي شفّافة تُظهر ما بداخلها بشكل يكاد أن يكون واضحًا .

و يقول القرآن : **(إنَّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْـمُ السَّاعَةِ ويُنزّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَـمُ ما فِـي الأرْحامِ ...)** [لقمان : 34] . أما علم السّاعة فتلك مسألة تختص بجوهر الأديان القائمة على الغيبيّات وتجميد العقل و الإيمان بها لا يعنيني وليس لي مطمع بنقاشها . أما إنزال الغيث فصار في وسع أيّةِ دولة تمتلك ناصية المعرفة أن تنزل الغيث متى شاءت و أن تحبسه وقتما شاءت . و الصّين حبسته في مكان و أفرغته في آخر حين قامت بتشتيت السّحاب بواسطة الطائرات و منظومات الصواريخ التي أطلقت حوالي ألف صاروخ متخصّص في بعثرة الغيم كي لا يُفسد افتتاح الأولبياد الأخ ير (56) . أما العلم بما تحتويه الأرحام .. فالمقصود هنا بإجماع المفسّرين هو جنس المولود . و الطب الآن يستطيع أن يكشف عن ذلك بيسر .. بل يستطيع أن يخصّب لك ما تشاء . لذا فقد انتفى الإعجاز هنا .

و في واحدة من أشدّ الأفكار القرآنية إثارة للجدل لما قيل عن علميّتها السّابقة لعصرها في علم الأجنّة . و هي ترد في أكثر من آية بألفاظ مختلفة .. سأوردها كلّها :

يقول القرآن : **(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ...)** [المؤمنون : 12–14] . و نقول أين (البويضة) ؟ فالإنسان بحسب الآية يُخلق من النّطفة (السائل المنوي الذّكري ومحتوياته) .. وهذا كفو بواح من وجهة نظر العلم لأنّ النّطفةَ بلا قيمة دون البويضة التي تكون مؤهّلة للتلقيح والتخصيب .

وهو هنا يقول (خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً .. إلخ) ، ولا يتحدّث عن المشاركة في شيء سوى الإشارة العابرة إلى (نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ) و المقصود هنا المستقر في الرّحم و ليس البويضة إلاّ لمن شاء لي عنق التفسير فهذا شأنه . أمّا أطوار تكوّن الجنين فقد قال بها (آرسطو) قبل ولادة (محمّد) بحوالي تسعة قرون . إذ أجرى بحوثًا وتجارب على أجنّة الطيور والحيوانات وله كتاب هام في هذا الشّأن هو (أجزاء الحيوان) ترجمه (عبد الرحمن بدوي) ، لكنّه كان يرى بأنّ الجنين يتكوّن من دم الحيض عند الأنثى . وهناك آراء أخرى منذ أيّام الفراعنة في مصر حول خواصّ المشيمة ، وحكايات أخرى بعضها يذهب إلى منحى الخرافة في أنّ الإنسان هو قزم في نطفة أبيه يكبر في بطن أمّه ، أو أنّ نطفة الأب تحفّز القزم الموجود أصلاً في بويضة الأم فيكبر ويكون بشرًا .. إلخ . لذا فالحديث عن الأجنّة ليس جديدًا .. إنّما الجديد الذي أتى به الإسلام عبر هذه الآية هو الآتي :

1 . الخرافة الأولى : إنّ الإنسان مخلوق من طين .

2 . الخرافة الثّانية : إنّ النّطفة الذكريّة سبب الخلق .

3 . الخرافة الثّالثة : إنّ العلقة هي الجنين في أوّل ساعاته . وهذا خطأ لأنّ العرب تقول للحبلى عالق . وكل شيء يعلق بآخر مثل (الجنين بالرّحم) فهو علق . و هي هنا ليست بمعنى شكل الجنين الشبيه بالدودة .

4 . الخرافة الرّابعة : إنّ العظام تتألّف بشكلها المعهود . وهذا خطأ لأنّها أقرب إلى الغضاريف منها إلى العظام .

5 . الخرافة الخامسة : إنّ اللحم يكسو العظام . وهذا خطأ لأنّ العضلات هي التي تكسو العظام لا اللحم . ثم أنّ الجنين ليس فراغًا ؛ بل أنّ أجزاء الوظائف الهامة تكون قد تكوّنت في الفترة الأولى و هي القلب والمخ والنخاع الشوكي والعمود الفقري .. فكيف يصوّر لنا القرآن أنّنا أمام هيكل عظمي يتشكّل لتتم كسوته باللحم .. ! !

و في النهاية تأتي النشأة و هذا صحيح لأنّها نتيجة طبيعيّة لهذا الجنين الذي يحتويه رحم أمّه لأشهر . ومن الطبيعي أن يعرف حتّى الإنسان البدائيّ أنّ بطن الأ م الحامل و تغيّراته في الشّكل والحجم يعكس تغيرات وتطوّرات الجنين الذي بداخله . ومن المهم أن نعلم بأنّ الفكرة العلميّة الرّاسخة التي نؤمن بها الآن عن الأجنّة وتكوّنها عبر شراكة الرجل والمرأة تعود جذورها إلى العام 1775 عبر نظرية العالم الإيطالي (سبالانزاني | Spallanzani) .

أمّا ما يثبت – بحسب رأيي – أنّ (محمّدًا) اعتقد بأنّ النّطفة هي الأساس و الأصل في الخلق ؛ فهو الكم الهائل من الآيات التي تشير كلّها إلى الطين و ماء الرجل و نطفته دون أيّة إشارة إلى المرأة ، طبعًا باستثناء الإشارات المكانية لرحمها (قرار مكين) والتي لا إعجاز فيها كما أسلفنا . و لنا أن نطالع تلك الباقة المُختارة :

(فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَ ةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلا) [الحج : 5] .

(أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ) [القيامة: 37 – 38] .

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ) [الأنعام : 2] .

(بَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ) [السّجدة : 7 – 9] .

(أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ) [الصّافّات : 11] .

(إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ) [ص : 71] .

(أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ) [المرسلات : 20 – 22] .

ولا يبقى في هذا الصّدد سوى آيةٍ واحدةٍ يتمسّك بها الإعجازيّون و يقولون بأنّها تقول بالشّراكة بين الجنسين في الخلق والتكوين . والآية المقصودة هي : **(إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)** [الإنسان : 2] . و كلمة (أمشاج) تعني أي شيء اختلط بأيّ شيء حتى لو كان هذا الشيء قذارةً بطاهر أو دمًا بماء أو وساخةً تعلق بالسرّة . و في الآية لدينا (نطفة أمشاج) أي أنّها إشارة إلى ماء الرجل غير الصّافي ، لأنّ أيّ مراهق يعرف تمامًا بأنّ ماءه غير صافٍ . ولو أراد أن يقول بالشّراكة كما يدّعون فلن تعجزه الكلمات أو البلاغة . و لا أدري لماذا يجب أن نتقوّل على اللغة والطبيعة والمنطق كي نثبتَ أنّ الدين رديفٌ للعلم .. في حين أنّه سبب تأخّر العلوم والمعارف والأمم . ولا أدري لماذا يتخيّل السّاذجون أنّهم سيجدون في كتب (الإله الديني) كلّ ما يحتاجونه لبناء حضارة ، في الوقت الذي تقوم فيه تلك الكتب على مبدأ واحد هو نسيان مبادئ العقل والتفكير بل والإرادة على التفكير ، و الاكتفاء بمبدأ الغباء العاطفيّ الذي لا يريد أن يتوقّف عن الإيمان بهاجس الجنّة والنار . لا أدري .. ! !

هذا من جهة الأجنّة ؛ أمّا من جهة الظّواهر الطبيعيّة والفلكيّة والحيوانيّة والنباتيّة .. فسأختار باقة منوّعة من الإعجازيّات و لن أطيل . و سأقول بأنّ كلّ الآيات التي تناولت الليل والنهار والقمر والشمس وما إلى ذلك هي دليل قطعي على أنّ القوم كانوا يجهلون مسألة نصف الكرة الأرضية الآخر .. وحين يكون الليل مطبقًا على يثرب و مكّة .. فهذا يعني أنّ الهنود الحمر في داكوتا أو سواها كانوا ينعمون بضوء النهار . أما فيما يخص تلك الآية : **(لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)** [يس : 40] . بعيدًا عن غرابة كلمة (سابق) من الناحية العلميّة ؛ لأنّهما يتتابعان ولا يتسابقان . نقول بعيدًا عن هذا فالمراد هنا من الليل والنهار معناهما المباشر كما أنّ الشمس والقمر يدلاّن مجازًا عليهما . و المسألة لا تحتمل التقوّل بقدر ما تحتاج إلى قراءة واضحة و سنكتشف أنّه يريد من المعنى (الطلوع) و أنّهما لا يطلعان في ذات الوقت بل كلّ له ميقاته . و نقول مجرّد وجودك في بلد اسكندنافيّ خلال شهريْ (حزيران | تمّوز) سيعطيك فكرةً عن خللها العلمي الفاحش ، ناهيك عن النهار شبه السّرمدي الذي تمرّ به تلك المنطقة في هذه الفترة من السنة . يبقى أنّ نقول بأنّه لا أحد سمع أو اكتشف أو رأى أنّ الليل والنهار يسبحان في الفلك .. حيث أنّ سباحة (القمر | الشّمس) في الفلك تعبير غير دقيق ، وفي هذا حديث يطول حول القوّة و الطاقة المبذولة وهل هما يسبحان باذلين جهدًا أم يدوران و يمضيان بلا أدنى جهد .

إنّما الإعجازيّون لا يهجعون – بالطبع – إلى مثل تلك الأجوبة ؛ بل أنّهم سيأتون باسم عالم أجنبيٍّ من الدرجة العاشرة و يكتبونه بالإنكليزيّة و يضعون بعض صور الكرة الأرضية المأخوذة من أطلس الجغرافيا و صور لمدارات القمر والشمس و المجرّة ، و يتقوّلون على (القرآن) ما لم يقله و ما لم يعرفه و ما لم يفهمه أحدٌ في تلك الحقبة الزمنيّة . كلّ هذا ليثبتوا بشكل سطحي أنّ (القرآن) فعلاً تنبّأ بشيءٍ قيّم .. و أنّها البشرى .

ولا أدري أين كان (القرآن) من الكون و مكوّناته الأخرى ؛ لأنّ الحديث عن الأرض و ا لقمر والشّمس صار اليوم مضحكًا قياسًا بحجومها الضّئيلة مع كواكب أخرى ومجرّات لا حصر لها تسترعي الانتباه فعلاً . لكنّ العلّة ليست فيهم ؛ إنّما في اللغة الشّاعريّة لـ (القرآن) و ما جرّته على هؤلاء المساكين الموهومين من ويلات لأكثر من 1400 عام .

وفي مجالات الفلك الأخرى نقرأ : **(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ)** [يس : 40] . ومن خلال بحثي عن تلك المسألة و بسرعة عبر صديقنا الـ (غوغل) عرفتُ أنّ آخر شقّ قمريّ عمره حوالي 100 مليون سنة . وهذا رقم أمامه ثمانية أصفار و لو سمعت به العرب في حينها لفرّ صنديدهم من صاحبته و بنيه . في حين يخبرنا المفسّرون والصّحابة عن تلك الحادثة قائلين : **(انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقتين . فستر الجبل فلقة . وكانت فلقة فوق الجبل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهم ! اشهد " . وفي رواية : " اشهدوا اشهدوا)** (57) .

و يقول : **(إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)** [يس : 40] . و المراد هنا بحسب المفسّرين أنّ الشياطين التي لا تلتزم بالقانون وتحاول أن تتلصّص و تسترق السّمع أو تلقي نظرة على ما يجري في الأعلى سيتم دحرها بواسطة تلك الآلة الحربية . وفي الواقع يقول (ابن عباس) أنّها لا تقتلهم ؛ بل تحرقهم وتصيبهم بالخبل والجنون : **(... لكنها تـحرقهم من غير قتل، وتُـخَبِّل وتُـخْدِج من غير قتل)** (58) .

ويقول القرآن : **(كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ)** [العنكبوت : 41] . قلنا مسبقًا بأنّ التعبير الشّاعريّ لا يعني بالمطلق أنّنا أمام حقيقة . إذ ما نعرفه اليوم عن العناكب يفوق بساطة الآية أعلاه . فهي أنواع و سلالات تتجاوز الآلاف .. ولا تكون الأنثى بنفس المنزلة دومًا . أما من ناحية التأنيث فإنّ العرب تؤنّث (العنكبوت) في الغالب الأعم .. ولا تقول (عنكب) إلاّ نشازًا . وفي ذلك يمكن الرجوع إلى أقوال صاحب اللسان أو صاحب المحيط أو صاحب القاموس المحيط .

والآن أين الإعجاز في أنّ أنثى العنكبوت تقوم بنسج بيتها الواهن .. ؟ أنا أقول لكم بأنّ الإعجاز يكمن في وصفه بالواهن و لا أدري لماذا واهن ! ! ربّما مقارنة بقوّة أجسادنا فنعم .. ولكنّ الحشرات و بيوتها يقاس عليها في محيطها و مع أقرانها ، وليس مع البشر أو بيوتهم .

إلى هنا سأتوقّف ، وليست الغاية أن أقول و أجمع كلّ ما يقال .. إنّما غايتي تسليط الضوء على الأفكار التي يرى المؤمنون بالقرآن أنّها إعجازيّة .. وسيظلّون على إيمانهم للأسف .

الإعجاز العددي كونه سذاجة :

يجوز لنا التساؤل : هل هو كتاب رياضيّات أم كتاب عبادة ؟ هذه الأرقام التي تخرج عادة من قبيل المصادفة أو بالاعتماد على غباء المتلقّي الذي لن يكلف نفسه عناء البحث لدحضها أو في افتراض أرقام مسبّقة والقياس عليها .. أقول هذه الأرقام ما نفعها وفائدتها ؟ البعض تداول أحداث (11 سبتمبر) وكيف أنّها مذكورة بالقرآن .. ولمّا أحسّوا بأنّ العملية مجرد قتل أبرياء و دموية و بربرية ولا قيمة إنسانية بها ، وأنّ العالم المتحضّر أدانها وهلّل لها (الجُربان) و أصحاب اللّحى الكثّة .. أقول لمّا أحسّوا بذلك بدأوا يتحدّثون عن (حرف الواو) وهل يحسب أم لا يحسب ، ثم البسملة في سورة (براءة) وهل تمّ حسابها أو لم يتم .. إلخ . والمهم لدينا هنا هو أنّ سدنة الإعجاز العددي القرآني تناولوا هكذا أمور وضيعة لا تشير سوى إلى تأخّرهم الفكري . وفي جانب آخر يقوم (بسّام جرّار) منذ سنوات بالكتابة في مجال الإعجاز العددي القرآني ؛ ولديه نظريّة لطيفة تقول بأنّ زوال دولة إسرائيل سيكون في عام 2022 مـ . وذلك مستقىً من القرآن و السّنة والعهد القديم أيضًا . بل أنّه لا يتورّع عن استخدام كلمات لرئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق (مناحيم بيغن) و الاستشهاد بها على صحّة نظريته .. فهل في هذا شيء من عقل أو منطق .. ؟! بل أنّ أحدهم لم يخجل من نفسه حين ذكر دراسة استخباراتيّة روسيّة و ربطها مع نبوءات الإعجاز العددي في (القرآن) وخرج بحقيقة أنّ إسرائيل ستزول وفق كلّ هذه المعطيات .. ! !

أيضًا ، هناك موضوع متداول بكثرة عن الداعية (طارق السويدان) و اكتشافاته الرقمية العجيبة من القرآن .. و من ضمن الخطل الذي فيه :

("الرجل" وردت 24 مرة مقابل 24 مرة لـ "المرأة ")

ونقول بأنّ المساواة بين الرجل والمرأ ة تقتضي سلوكًا لا رقمًا متشابهًا في كتاب . و مع ذلك فدعني أخبرك – شيخي – بأنّ الحساب يجب أن يكون لكلّ كلمات التذكير : (الرجل + رجلاً + رجال + رجلان + رجلين + الذكور + ذكورًا + ذكر + أب + أخ + عم + خال + ابن + ولد .. إلخ) . وحساب النساء يكون لكل كلمات التأنيث : (امرأة + المرأة + النساء + نسوة + أنثى + أمّ + أخت + بنت .. إلخ) . احسب كلّ هذا وحدّثني عن المساواة .. وبنفس الطريقة واصل بقية المفردات في إحصائيّتك الركيكة .

إنّ تلك الممارسات لا تجلب سوى المزيد من الانتقاد للإسلام وكتابه ورموزه . وعليهم أن يشعروا بالخزي من تلك المحاولات المرتبكة التي تصرّ على جعل الإسلام دينًا عابرًا للأزمان والقارات , دينًا يصلح لكل وقت و أوان ؛ و التي سيكون مصيرها النقد و الدّحض ثمّ التلاشي .. وكأنّها لم تكن شيئًا مذكورا .

اقتباس القصص القرآنيّة :

لم يعد سرًّا أنّ القصص القرآنية في مجملها تتعكّز على القصص التوراتيّة و التلموديّة والإنجيليّة و ما يسمى بأناجيل الطفولة و الأخبار التي يتداولها الكهنة في ذلك الوقت . وهذا لا يعيب (القرآن) في شيء كما أرى ، و كما يرى (محمّد) الذي ذكر ذلك بأمانة و كبرياء كما أسلفنا في بداية مقالنا : **(وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ)** [الشّعراء : 196 – 197] . بل أنّه يسهّل علينا الأمر ويثبت لنا أنّ تلك الأديان تنهل من غدير قصصي واحد .. ! !

وسأقوم بإيجاز القصص القرآنية المُقتبسة عن النصوص الأصليّة ، و على القارئ أن يجتهد في بحثه و يخرج برأيه الخاص :

آدم + حوّاء + الخلق (التوراة : تكوين) و (التلمود) .

هابيل + قابيل + القربان + الجريمة (التوراة : تكوين) و (التلمود) .

فكرة الغراب + الدفن (التلمود) .

حياة إبراهيم بشكل عام (التوراة : تكوين) .

مرحلة الشكّ الإبراهيمي في الإله وهل هو النجم أم القمر أم الشمس (التلمود) .

إدريس ورفعه (العهد القديم : عبرانيين – قصّة أخنوخ) .

إغواء زليخة ليوسف (التوراة : تكوين) و (التلمود) .

موسى + الانتشال من الماء + الإرضاع + الجريمة + الفرعون (التوراة : خروج) و (التلمود) .

موسى + المعجزات (التوراة : خروج) .

موسى + الخضر (التلمود : قصّة يشوع + إيليا) .

قارون (التوراة : قصّة قورح المتمرّد) و (التلمود : قصّة المتمرّد الثّري) .

إلانة الحديد لداود + تسخير الجبال لداود (التلمود) .

سليمان وقصصه و إمكانياته ومواهبه العجيبة (التلمود) .

هاروت + ماروت (التلمود : قصّة عزازيل + شمحازاي) .

يأجوج + مأجوج (أساطير يونانيّة + مسيحيّة مبكّرة) .

ذو القرنين (أساطير يونانيّة + مسيحيّة مبكّرة + عملات نقدية معدنيّة بصورة الأسكندر) .

يونس + الحوت + شجرة اليقطين + عدد سكّان المدينة (العهد القديم : يونان) .

المسيح + حبل أمّه الغريب + ولادته العجائبيّة (الأناجيل القانونية) .

المسيح + خلق الطير من الطين + الحديث في المهد (أناجيل الطفولة : إنجيل توما على وجه الخصوص) .

وهناك الكثير من القصص لا أصول مدوّنة لها و لربّما كانت شفاهية على غرار الأساطير التي نُسجت عن ممكلة (الأنباط) ؛ و التي ذكرها القرآن بتعبير (قوم ثمود) ونبيّهم (صالح) . والمزيد مما لا حاجة للمكتفين بالتلميح والإشارة لذكره (59) .

مشاكل القرآن البلاغيّة :

لعلّ من أهم الميّزات التي يتفاخر بها المؤمنون بالدين الإسلاميّ هي براعة اللغة القرآنية . و إنّها أعجزت شعراء ذاك العصر و نوابغه . و بالفعل هم صادقون في الكثير مما يذهبون إليه وقد أشرنا إلى ذلك في المقدّمة و قلنا أنّه كتاب فاخر وفق قياسات اللغة والإبداع وقتذاك . وأنا أتّفق مع (أدونيس) في قوله : **(يجيب النصّ القرآني بشكل جماليّ و فنّي ، ولهذا يمكن وصفه بأنّه نصّ لغوي ؛ أعني لا بد لفهمه من فهم لغته أوّلاً)** (60) . ولّما اجتهدنا في أن نفهمه وجدنا في بعض مبانيه ارتباكًا في مجال بلاغته تلك التي هي أهم أسلحته الدفاعيّة . وسأكتفي بأمر البلاغة و لن أتحدّث عن مشاكل اللغة و النحو و الكلمات الأعجميّة في القرآن فقد قال فيها الدارسون و دافع عنها المؤمنون حتّى تكاد تكون بلا قيمة الآن .. وإن كنتُ ما زلت أرى في مسألة **(قال له كن فيكون)** مشكلة لا يستسيغها لساني العربي الذي لا أشك فيه ، كوني شاعرًا لا أحتاج إلى مترجمٍ يوضّح إليّ لغتي العربيّة التي أتحدّثها و أحلم بها و أكتبها .

عمومًا ؛ نبقى في البلاغة ونقول إنّا مهما سألنا الأخوة المؤمنين عن شيءٍ به خلل لغويٍّ أو تاريخيّ أو علميّ أو بلاغيّ فسيقولون لنا الكليشة الجاهزة و بالحرف الواحد : **(لو كان هذا صحيحًا فلماذا لم يجادل به الشّعراء و مشركوا قريش و اليهو د والنّصارى أيّام النّبي و هم أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا ؟)** . وبعد أن أبتسم قليلاً أودّ القول بأنّ هذا رأي فاسد . و فساده يقوم على وجهين ، الأوّل : نحن لا نعرف مدى إمكانية معاصري النّبي من الناحية الفكرية والمعلوماتيّة قياسًا بمعارفه هو . خاصّة و البعض يرى بأنّ معرفة اليهود – على سبيل المثال – الموجودين في (المدينة) حينذاك بأفكار (العهد القديم) ليست متمكّنة بل يشوبها الضعف والبساطة (61) . و الثّاني : لا نعرف مدى أمانة النّاقلين حتّى وصلتنا الأخبار على ما هي عليه الآن .

من هذا المنطلق تعالوا نناقش المسألة ؛ لأنّي أحبّ مناقشة الشكّاك المملوء بالهواجس والذي لا يكاد يركن إلى حقيقة . أمّا أولئك الذين يدخلون حلبة الحوار متسلّحين بإيمانهم (الإلهي) المطلق وكتبهم (السماويّة) و وعد الجنّة .. فلا مطمع لي بلقائهم .

البلاغة هي حسن البيان و فصاحة اللسان وقوّة التعبير بما يجلب الفهم وييسر الإفهام للقارئ أو المتلقّي بشكل عام . وكي لا نطيل في مشاكل البلاغة قرآنيًّا سأختار بعض المشهور لأوضّح رأيي :

1 . **(وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً)** [الإسراء : 16] .

يريد أن يقول : إنّ (الله) إذا ما أراد أن يهلك مجتمعًا ما فإنّه سيأمر الأثرياء و المترفين بالفسق والفجور ؛ بمعنى يقدّر عليهم أفعالهم المعلومة عنده أصلاً ، وحين يفسق هؤلاء الأثرياء الكفرة سيضرب القرية بمن فيها . أي أنّ (الله) يحتاج إلى مبرر كي يعاقب .. ولمّا لم يجد مبرّرًا كافيًا وهو يريد أن يعاقب بشكل من الأشكال فإنّه يفرض على الأثرياء فعل ما يستوجب تدخّله بعد ذلك .السؤال الأهم هنا هو ما ذهب إليه (الرّصافي) بما معناه : **(لماذا يهلك الأثرياء الذين أطاعوه وامتثلوا لأمره ، خاصّ ة وأنّ المترفين هم من فسقوا وليست القرية بأكملها ؟!)** (62) .

2 . **(وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ)** [الصّافات : 147] .

لمّا كان (الله) في شيء من الدقّة لا يدرك كنهها عقل ولا تخطر على قلب بشر .. فإنّي أستغرب هذا المنهج التقريبي – إن صحّ التعبير – في قوله (أَوْ يَزِيدُونَ) ، ولماذا يحدّد (محمّد) العدد الذي يسكن المدينة (نينوى في شمال العراق) حيث تنبّأ فيها (يونس) وهو (يونان) في (العهد القديم) .. أقول لماذا يحدّد الرقم إن لم يكن دقيقًا بما يكفي ، أم لأنّه اقتبس النصّ كما هو وعلى علاّته : **(نِينَوَى الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي يُقِيمُ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ مِئَةِ**

وَعِشْرِينَ أَلْفَ شَخْصٍ) [يونان . 4 : 11] . فهل من اللائق أن يشترك النصّان في وصم (الله) بعدم الدقّة .. ؟! وما نفع العدد بلاغيًّا وما فائدته .. ؟!

3 . **(يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)** [السّجدة : 5] . و : **(تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)** [المعارج : 4] .

من الواضح هنا إنّ المسافة بيننا وبين (الله) هي في رقمين لا ثالث لهما .. إمّا (ألف سنة) أو (خمسين ألف سنة) . ونحن تحدّثنا فيما سبق عن مشكلة الأعرابي وقتذاك أمام الأرقام التي تليها أصفارٌ كثيرة .. لذا فهو يقف مشدوهًا أمامها لا يلوي على شيء سوى محاولة الفهم . و لّما كان الفهم مقصورًا في علم هذه الأمور على صاحب الشّأن (محمّد) و الذي لم يعطِ جوابًا شافيًا حول الأمر لا في (القرآن) ولا في (الحديث) ؛ فإنّ البعض انبرى لتفسيرها .. فكانت النتائج كلّها تتراوح في أنّ هذه المسافة هي ما يفصل الأرض عن العرش و قيل أنّ المراد بـ (اليوم) هو يوم القيامة و قيل أنّ (جبريل) شخصيًّا قام بتحديد هذا الرقم لـ (محمّد) كي يسهّل الأمر على البشر بالأرقام التي يعدّون بها . في حين أنّ (ابن عبّاس) لم يحر جوابًا عليها حين سُئلَ : (سأل رجل ابن عباس عن يوم مقداره ألف سنة، قال : فاتهمه، فقيل له فيه، فقال: ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ فقال : إنما سألتك لتخبرني، فقال: هما يومان ذكرهما الله جلّ وعزّ، الله أعلم بهما، وأكره أن أقول في كتاب الله بما لا أعلم) (63) .

واللّطيف في هذه الشّأن أنّ أحد الملاحدة الموهوبين قام بعمليّة حسابيّة (وليست انتحاريّة) حول فقرة (خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) هذا نصّها :

(لمّا كانت سرعة الإنسان ماشيًا على قدميه حوالي 6 كم في السّاعة .

تكون المسافة التي يقطعها في خمسين ألف سنة هجريّة (السنة الهجريّة = 354 يومًا) هي :

6 × 24 × 354 × 50000 = 2548800000

ولتحويلها لمقياس السنين الضوئية يتم تقسيم الناتج على سرعة الضوء :

(سرعة الضوء = 300000 كم | ثانية) .

2548800000 ÷ 300000 = 8496

وهو ما يساوي تقريبًا ساعتين ضوئيّتين ونصف السّاعة .

ولمّا كان نصف قطر الكون يساوي 35 مليار سنة ضوئيّة فسنكتشف إنّ مكان الله يمكن رؤيته بالمنظار) .

وبعيدًا عن تلك العمليات الحسابية أودّ أن أسأل : ما المغزى البلاغي والإفحامي و التعبيري في تحديد الرقم هنا ؟ في وقت كان الأجدر به أن يحدّد عدد سكان (نينوى) في الآية السّابقة .

4 . **(وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ)** [النجم : 45] .

سؤال واحد فقط حول هذه المسألة : من خلق الخنثى ؟

5 . **(أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)** [الغاشية : 17 – 18] .

لا أدري أيّة بلاغة في مساواة عملية خيالية ذات أبعاد فكريّة عميقة مثل رفع السماء ، بهيكل حيوان هو أقرب ما يكون إلى التشوّه الخلقي مع تقديري لميّزاته النبيلة والكريمة . إنّما أيٌّ قادر على الحكم الرشيد سيقف مستاءً من تلك المساواة . ولماذا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وهي معهم في حلّهم و ترحالهم وأمام أعينهم في كل حين . وما الجديد في الإبل كي ينظروا إلى براعة خلقها ؟ يا لي ت شعري أين الإبل من الخيل ؟ بل أين هذا الطلب السطحيّ من ذاك الخطير المتأمّل : **(فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ)** [الطارق : 5] .. ؟!

كانت تلك وقفة سريعة مع كثير متاح .. إنّما رغم تضييقي و تقيّدي بالتلميحات فقد جاوز المقال حتّى الآن مساحته التي افترضتها .. لذا سأقف هنا فيما يخصّ البلاغة .

الإسلام عابرًا للقارات :

قال القرآن عن نفسه بأنّه أتى : **(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ)** [الشّعراء : 195] . وتكرّر الكلام عن جزئيّة (العربي) في قُرابة عشرة مواضع ، حتّى يكاد المرء أن يتخيّله كتابًا قوميًّا يتبنّى الفكر البعثيّ المعاصر . إذ أنّ كلّ تلك المواضع تدور في أنّ هذا (القرآن) عربيّ ولو شاء (اللّه) – بحسب التعبير القرآني – غير ذلك لجعله بلسان أعجمي مبين ! ولكنّه لم يفعل ، بل أنّه لا يريد لغير العربي أن يسمعه و يؤمن به لأنّه : **(لَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِ ينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)** [الشّعراء : 198 – 199] . ومعنى الآية : لو نزّلناه على الأعجميين [وقد حذف ياء النسبة] و بهذا اللسان العربيّ ما كانوا به مؤمنين . و ربّما كفروا به لعدم فهمه و فهم أبعاده ومقاصده الرشيدة ورؤاه السديد ة . و من هنا أشعر بأنّ الرّسالة المحمّدية لم تكن أمميّة الطابع قرآنيًّا . حتّى أنّ الآيات التي يستشهد بها القوم لإثبات عالميّة الدين الإسلامي تكاد لا تصمد : **(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)** [الفرقان : 1] . أو : **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)** [الأنبياء : 107] . أو : **(وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)** [سبأ : 28] .. وغيرها من الآيات التي تدور في ذات الف لك . و المهم لدينا هنا هو أن نعرف معنى كلمتين دون سواهما (العالمين) و (كافّة) .

(العالمين) تعني العوالم المختلفة من أنس و جن وحيوان ونبات وما إلى ذلك . ولكنّه مجاز عن الناس كما في أقوال العرب و القرآن نفسه في آيات مختلفات . و (كافّة) لها معنيان . الأوّل : جميعًا وهو اسم منصوب على الحاليّة دومًا . و الثّاني وهو المراد في هذه الآية : بمعنى الكاف عن المعاصي . والهاء في نهايتها زائدة تضيفها العرب للمبالغة كما في قولهم (فلان الراوية) و (فلان العلاّمة) .. إلخ .

وهكذا نجد بأنّ الآيات القرآنية التي تحتوي على (العالمين) يقصد بها الناس . والنّاس هنا ليسوا البشرية بل هم من يختلط بهم قائل القول .. وفي هذا يقول قوم (لوط) : **(قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العَالَمِيْنَ)** [الحجر : 70] بمعنى أولم ننهك يا (لوط) عن استضافة أحد من النّاس ، وهم بالقطع لا يقصدون عوالم الإنس والج ن والحيوان والجماد و الأمم المحيطة .. بل كانوا يريدون الناس من محيطهم . أمّا فيما يخصّ (كافّة) فهي لم ترد في (القرآن) حالاً إلاّ وكانت تلي صاحبها فلا تتقدّم بالمطلق . كما في : **(يأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً)** [البقرة : 208] . أو : **(قَاتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً)** [التوبة : 36] . وغيرهما .

ومن الأمور التي تثير لدي تساؤلات حول تلك العالميّة ؛ أنّ (محمّدًا) حين شاء أن يبتكر حدود رسالته ومداها قال بشكل واضح : **(وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)** [الزخرف : 31] . والمتّفق عليه عند أهل التفسير أنّ القريتين هما (مكّة | الطّائف) و الرّجلين على أرجح الأقوال هما (الوليد بن المغيرة من مكّة و عروة بن مسعود الثّقفي من الطّائف) . وهذا يعني أنّ حدود المدن بحدود رجالها العظماء الذين يريد لهم (محمّد) الهداية .. و إلاّ لقالوا بأنّها (المدائن) أو (الإسكندريّة) أو (القدس) .. إلخ . إنّما اكتفى بأن تكون حدوده محصورة في مدن الحجاز بدايةً ، ثمّ في أفضل الأحوال في شبه الجزيرة العربيّة .

والآن نسأل : لماذا يتحدّث الله العربيّة ؟ ولمّا شاءت قدر ته أن يتحدّث العربيّة لماذا يريد مخاطبة الأعاجم بالعربيّة ؟ وإن كانت الرّسالة عامة للبشريّة فكيف يمكن أن يستفيد الرومي و الفارسي من مسألة **(رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)** خاصّة وأنّهما في نظر هؤلاء الروم والعجم رجلان من بدو الصحراء و أجلافها .. ! ! ولـكيف يمكن أن نفسّر الشتائم الموجّهة إلى اليهود والمسيحيين في (القرآن) على أنّها دعوة لهم من أجل الالتحاق بدين جديد أفضل من أديانهم التي لا تختلف عن السّذاجة الإسلاميّة في شيء ؟

إنّه بالفعل أمر متناقض يثير الريبة و الشّك .. ولا ألوم الزعيم التونسيّ الرّاحل (بورقيبة) حين نقل عنه البعض قوله : **(إنّ في القرآن تناقضًا لم يعد يقبله العقل بين "قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا" وآية "إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ")** . هكذا يجب أن نقرأ الأديان ونحن نتساءل غير مطمئنّين لأيّ شيءٍ على ظهر هذا الكوكب .. و تلك هي الأسئلة التي يجب أن يسألها الباحث عن حقيقة عالميّة الأديان عمومًا و الإسلام خاصّةً .

الخالق يقسم بمخلوقاته :

لا مشاحّة أنّ (الله) في (القرآن) يحبّ أن يقسم بكلّ شيء و لأجل أيّ شيء . و (محمّد) ينحاز في أغلب أقواله القرآنيّة إلى حلّ مشاكله الآنيّة اليوميّة . وليس من مشكلة في أن ينحاز كاتب (القرآن) لهوى نفسه .. ولكن المشكلة تكمن في ارتباك القَسَم الإلهي حين يصدر . و لمّا كان الله خالق كلّ شيء و القادر على كلّ شيء يقسم بالخيل والتين و الزيتون و الجبل و الضحى والليل .. إلخ فهذا يضعنا أمام مشكلة هي كيف يحلف الصانع بصنيعه ؟ مثلاً أقوم أنا الآن بصنع مقعد من الخشب فيروق لي و أراه رائعًا .. فأنقاد لعاطفتي وأصرخ : (وحق مقعدي هذا سأفعل كذا وكذا .. إلخ) . هذا ما يحصل حين يحلف الصانع بمصنوعاته .. و الواجد بموجوداته .. و الأوّل بما يليه . وكي لا نطيل سأختار سورة قصيرة كمثال و أتحدّث عنها لنجد هل كان هذا السّيل من الأيْمان الغليظة مُبرَّرًا .. أم لا ؟!

(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ) [القرآن : العاديات] .

فانظر عزيزي المؤمن – هدانا الله و إيّاك – إلى المعنى الذي سأورده بين الأقواس و بجوار الآيات في السّورة :

(**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا** [قسمًا بالخيول التي تغزو في سبيل الله وهي تحمحم] * **فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا** [قسمًا بقدح النار إذ تنشأ جرّاء احتكاك حوافر الخيل بالأرض والصخور] * **فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا** [قسمًا بالخيل التي تغير على عدوّها صبحًا وعلانية دون خوف أو وجل] * **فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا** [قسمًا بالخيل إذ ما أثارت الغبار في مخيّم العدو] * **فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا** [قسمًا بالخيل إذ ما توسّطت جمع الكفّار في عقر دارهم] * **إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ** [قسمًا بكلّ ما سبق ذكره : إنّ الإنسان لكفور بنِعَم الله] * **وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ** [و إنّ

الإنسان ليشهد على نفسه ويعرف بأنّه كافر بنعم اللّه] * **وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** [وإنّ الإنسان يحبّ بشدّة صنوف الخير من مال و بنين ودنيا] * **أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ** [الويل له ؛ ألا يعلم هذا الإنسان المحبّ لحياة الخير والرّاحة ماذا سيحدث حين يقوم اللّه ببعثرة القبور؟] * **وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ** [وحين يميّز اللّه بين صدور القوم أجمعين فيعرف ما تخفيه و ما تعلنه ؟] * **إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ** [إن اللّه يومئذٍ لخبير بكل ما قالوا وما فعلوا]) (64) .

والآن ؛ بعد أن نختصر التفسير يتّضح لنا أنّ (اللّه) شاء أن يقول : **(قسمًا بالحصان ؛ إنّ الإنسان كافر ، و سيُعاقب لاحقًا)** .. ! !

النّاسخ و المنسوخ :

قبل البدء أقول بأنّني لن أخوض في مسألة **(الغرانيق العُلى)** المثارة حول (سورة النجم) فقد تمّت الإحاطة بها من كلّ جوانبها ، و استهلكها الدارسون وفيها كتبت الروايات (65) . ورأيي المختصر فيها أنّ (محمّدًا) جامل أصحابه وقومه إذ مرّ في حالة عاطفيّة صعبة ، و للكنه انتبه و ندم بعد ذلك فغيّر الآيات إلى ما هي عليه الآن .

لعلّ (النسخ) واحدٌ من أشهر الأحاديث لكلّ من تناول الإسلام بالدراسة والنقد . ولمّا كان (القرآن) كاملاً قبل وفاة (محمّد) ، والدين مؤسّسًا بشكل يرضى عنه شخصيًّا ، لم يبق من إشكال أمام خلفائه من بعده إلاّ مسألة جمع (القرآن) وتدوينه . وهنا تقع المشاكل عادة في الوقت الذي يحبّ الدارس و القارئ المتحرّر أن يفهم دون تلقين و تقييد .. يحاول الآخرون ممّن يتصوّرون أنفسهم حرّاسًا للعقائد إغلاق كلّ باب محتمل للنفاذ إلى الحقيقة .

نقول للقارئ و بشكل سريع : إنّ النسخ هو : إلغاء الحكم الشرعي و تعطيل العمل به لعلّة ظهور حكم جديد . ويشرّعه (القرآن) في الآية : **(مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)** [البقرة : 106] . و الغاية منه كما يفهم العاقل إنّ لتراكم الآيات المتشابهة و تعدّد متطلّبات المجتمع المسلم صار من الواجب تغيير الأحكام في أوقات متقاربة و إلغاء و محو أو حذف بعضها نهائيًّا . و المسلمون يقولون بأنّ (القرآن) موجود منذ الأزل في (اللّوح المحفوظ) و سيبقى حتّى النّهاية . فيما يرى المخالفون لهم أنّ الله مهما كان شكله ووضعه هو أكبر من أن يغيّر أحكامه الأبديّة والأزليّة على مقاسات مجتمع (المدينة) و أهله البسطاء .

عمومًا ؛ النسخ في (القرآن) ثلاثة أنواع :

1 . <u>نصٌّ منسوخٌ و حكم باقٍ</u> : مثال ذلك (آية الرجم) (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة بما قضيا من اللذّة) . والتي عاتب بها الخليفة الثّاني (عمر بن الخطّاب) (أُبيّ بن كعب) حين كان يكتبها عن النّبي قائلاً : **(أتستقرئه آية الرجم وهم يتسافدون تسافد الحمر)** والتسافد يعني الجماع . و(عمر) نفسه قال أيّام خلافته أنّه لولا الخشية أن يق ال أنّه زاد في القرآن لكتبها بنفسه . وفي هذا المجال نستذكر (عمر) في قضيّة (المغيرة بن شعبة) الذي أتّهم بالزنى . وسنورد القصّة المطوّلة هنا من باب اللّطافة لغرابتها :

(إنّ امرأةً كان يقال لها أم جميل بنت الأفقم، من نساء بني عامر بن صعصعة، ويقال : من نساء بني هلال. وكان زوجها من ثقيف قد توفي عنها، وكانت تغشى نساء الأمراء والأشراف، وكانت تدخل على بيت المغيرة بن شعبة، وهو أمير البصرة، وكانت دار المغيرة تجاه دار أبي بكرة ، وكان بينهما طريق، وفي دار أبي بكرة كوة تشرف على كوة في دار المغيرة، وكان لا يزال بين المغيرة وبين أبي بكرة شنآن. فبينما أبو بكرة في داره وعنده جماعة يتحدثون في العلية إذ فتحت الريح باب الكوة، فقام أبو بكرة ليغلقها، فإذا كوة المغيرة مفتوحة، وإذا هو على صدر امرأة وبين رجليها، وهو يجامعها . فقال أبو بكرة لأصحابه: تعالوا فانظروا إلى أميركم يزني بأم جميل، فقاموا فنظروا إليه وهو يجامع تلك المرأة.

فقالوا لأبي بكرة: ومن أين قلت أنها أم جميل؟ – وكان رأساهما من الجانب الآخر –.

فقال: انتظروا، فلما فرغا قامت المرأة، فقال أبو بكرة : هذه أم جميل . فعرفوها فيما يظنون.

فلما خرج المغيرة وقد اغتسل ليصلي بالناس منعه أبو بكرة أن يتقدم.

وكتبوا إلى عمر في ذلك، فولى أبا موسى الأشعري أميراً على البصرة.

وعزل المغيرة، فسار إلى البصرة فنزل البرد.

فقال المغيرة: والله ما جاء أبو موسى تاجراً ولا زائراً ولا جاء إلا أميراً.

ثم قدم أبو موسى على الناس وناول المغيرة كتاباً من عمر، هو أوجز كتاب فيه:

أما بعد، فإنه بلغني نبأ عظيم، فبعثت أبا موسى أميراً، فسلم ما في يديك والعجل.

وكتب إلى أهل البصرة : إني قد وليت عليكم أبا موسى ليأخذ من قويكم لضعيفكم، وليقاتل بكم عدوكم، وليدفع عن دينكم، وليجبي لكم فيأكم، ثم ليقسمه بينكم.

وأهدى المغيرة لأبي موسى جارية من مولدات الطائف تسمى : عقيلة، وقال : إني رضيتها لك، وكانت فارهة.

وارتحل المغيرة والذين شهدوا عليه، وهم أبو بكرة، ونافع بن كلدة، وزياد بن أمية، وشبل بن معبد البجلي.

فلما قدموا على عمر جمع بينهم وبين المغيرة، فقال المغيرة : سل هؤلاء الأعبد كيف رأوني؟ مستقبلهم أو مستدبرهم؟ وكيف رأوا المرأة وعرفوها، فإن كانوا مستقبلي فكيف لم يستتروا؟ أو مستدبري فكيف استحلوا النظر في منزلي على امرأتي ؟ والله ما أتيت إلا امرأتي، وكانت تشبهها.

فبدأ عمر بأبي بكرة فشهد عليه أنه رآه بين رجلي أم جميل وهو يدخله ويخرجه كالميل في المكحلة.

قال: كيف رأيتهما؟

قال: مستدبرهما.

قال: فكيف استبنت رأسها؟

قال: تحاملت.

ثم دعا شبل بن معبد فشهد بمثل ذلك.

فقال: استقبلتهما أم استدبرتهما؟

قال: استقبلتهما.

وشهد نافع بمثل شهادة أبي بكرة، ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم.

قال: رأيته جالساً بين رجلي امرأة، فرأيت قدمين مخضوبتين يخفقان، وأستين مكشوفتين، وسمعت حفزاناً شديداً.

قال: هل رأيت كالميل في المكحلة؟

قال: لا.

قال: فهل تعرف المرأة؟

قال: لا، ولكن أشبهها.

قال: فتنحَ.

وروي: أن عمر رضي الله عنه كبّر عند ذلك، ثم أمر بثلاث فجلدوا الحد، وهو يقرأ قوله تعالى: "فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ" [النّور: 13].

فقال المغيرة: إشفني من الأعبد.

قال: اسكتْ، أسكتَ الله فاك، والله لو تمّت الشهادة لرجمناك بأحجارك) (66) .

ولا أدري كيف يمكن أن يتوفّر أربعة شهود عدول يرون رجلاً و امرأةً يمارسان الجنس غير الشّرعي في بلدة يحكمها الدين الإسلامي ؟ بل أنّ الرّجل يجب أن يُرى وهو يدخل عضوه في المرأة بالفعل كما يدخل الميل في المكحلة .. ! !

ناهيك عن أنّ عدم ورود (آية الرّجم) قد أربك صحابيًّا بمستوى (علي بن أبي طالب) وهو المتشرّب بالدين و أحكامه ففي قضيّة (سراحة) قام بجلدها أوّل الأمر 100 جلدة بحسب النّص القرآني .. ثمّ استدرك الأمر و قام برجمها . وحين سُئل عن السبب قال : **(جلدتها بكتاب الله و رجمتها بسنّة نبيّه)** .. ! !

وبعيدًا عن (آية الرجم) نجد أيضًا (آية إرضاع الكبير) و نصّها : **(عشر رضعات معلومات يحرّمن)** ثمّ صارت : **(خمس رضعات معلومات يحرّمن)** . و التي قالت بها (عائشة بنت أبي بكر) و التي يبدو بحسب روايتها أنّها كانت مدوّنه على ورقة موضوعة تحت أحد الأسرّة فإذا بشاةٍ أكلتها فضاعت الورقة و الآية ! ! فيما كانوا منشغلين هي و بقيّة نساء النّبي بمرضه الأخير . وقد مرّ عليك – قارئي – فيما سبق من المقال حديث مالك في (الموطّأ) عن مسألة (رضاع الكبير) .

2 . <u>نصٌّ باقٍ و حكم منسوخٌ</u> : وأشهر ما في هذا الباب هو (آية السيف) و نصّها : **(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)** [التوبة : 5] . ويقول (ابن العربيّ) في (الإتقان في علوم القرآن لـ السيوطي) أنّها : **(نسخت مائة و أربعًا و عشرين آيةً)** . فيما يرى (محمّد بن حزم) في كتابه (معرفة الناسخ والمنسوخ) أنّها : **(نسخت مائة وأربع عشرة آية في ثمان وأربعين سورة)** . وكذا (هبة الله

بن سلامة) إذ يرى في كتابه الشهير (الناسخ والمنسوخ) أنّها : **(نسخت مائة وأربع عشرة آيةً)** . ومن ضمن ما نسخته تلك الآية كانت آيات الموادعة والتسامح مع أهل الديانات الأخرى و الوثنيين .. ومنها :

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [الكافرون : 6] .

(لاَ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ) [البقرة : 256] .

(أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ) [يونس : 99] .

(وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلاَغُ) [آل عمران : 20] .

(ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [المؤمنون : 96] .

(ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [النّحل : 125] .

وغير ذلك الكثير مما تورده الكتب . ويبقى أن نشير إلى أنّ طائفة من " العلماء " لا ترى النسخ في هذا المجال صواباً بل أنّ بعضهم ينكر النسخ من أساسه و يعتبره تقليلاً لشأن اللّه السّامي .

3 . نصٌّ منسوخٌ و حكم منسوخٌ : ومثال ذلك أن تكون هناك آية يقول بها القوم ولكن لا وجود لها حكمًا أو نصًّا . كما ورد في (نواسخ القرآن لـ ابن الجوزي) إنّ طائفة من المسلمين تجمّعوا عند النّبي يسألونه عن سورة كاملة : **(ثمّ أذن لهم النّبي ، فأخبروه وخبرهم ، فسألوه عن السّورة .. فسكتَ ساعة لا يرجع إليهم شيئًا ، ثمّ قال : نُسخت البارحة)** . وفي ذات المصدر ما نُقل عن (شريك بن عاصم) أنّه قال : **(قال لي أُبيِّ ابن أبي كعب : كيف تقرأ سورة الأحزاب؟ قلت : سبعين أو إحدى وسبعين آية ، قال والذي أحلف به ، لقد نزلت على محمّد صلى الله عليه وسلّم وأنها تعادل سورة البقرة أو تزيد عليها)** .

و في (الإتقان في علوم القرآن لـ السّيوطي) ينقل أنّه كان لـ (عائشة بنت أبي بكر) قرآنٌ فيه من ضمن ما فيه : **(إنّ الله وملائكته يصلّو ن على النّبي ، يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما ، وعلى الذين يصلّون في الصفوف الأولى)** . و يبدو لي أنّها شاءت أن تجامل والدها الخليفة الأوّل (أبو بكر بن أبي قحافة) الذي كان يصلّي في الصفوف الأولى . وهذا مظهر من مظاهر حمّى التقوّل ؛ فكلّ فريق في فترة من الفترات كان لا يتورّع عن هكذا مغامرات ركيكة يغذّيها الجوع السّلطوي .

هذا – عزيزي القارئ – ملخّص مسألة الناسخ والمنسوخ في (القرآن) و للاستزادة انظر الهامش نهاية مقالنا (67) .

المرأة إسلاميًّا :

إنّ الحديث عن مكانة مميزة للمرأة في الأديان بشكل عا م لهوَ نوع متطوّر من الفكاهة السّمجة التي لا تليق بمن قرأ على أقل تقدير كتب الأديان المُعتبرة . والحديث عن تلك المكانة في الإسلام هو نوع من التجديف بالحقيقة . ولمّا كنّا قد وقفنا على آراء اليهود والمسيحيين في مسألة المرأة عبر مقالات سابقة .. رأينا أن نقف ع لى حال المرأة في الإسلام والتي لا تختلف كثيرًا عن الحيف الواقع عليها في مختلف الأديان .. معتمدين على النصوص القرآنية :

1 . نجد في (القرآن) أنّ للرجل حقًّا مطلقًا في حياة الزوجة . وهذا الحقّ يخوّله ممارسة العقوبات متى ما رأى أنّها ضروريّة وليس لأنّها ضرورية بالفعل . ثم لا أحد يعلم لماذا هناك عقوبات من هذا النوع الذي يناوش الغريزة أكثر من الرغبة في الإصلاح :

(وَٱلَّـٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ ٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً) [النّساء : 34] .

إنّ الإيهام الذي يحاول النصّ تربيته في مخيّلاتنا هو التراتبيّة أو التسلسل في العقوبات ، حيث تتدرّج من العِظة إلى الهجر إلى الضرب . وما يبرهن هذا الإيهام هو عدم وجود عدالة الحكم بالنسبة للحالة المعاكسة ؛ حين يكون الرجل ناشزًا :

(وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ) [النّساء : 128] .

أين هذه من تلك ؟ وإن كنتُ هنا لا أطالب بمبدأ الضرب و أستهجنه للطّرفين ، فلمَ أصلاً وضعه (المشرّع) إن لم يكن العدل لهما معًا ؟ ولمَ يختص الرّجل بتلك العقوبات التأديبيّة للمرأة كي يذلّها ويسيطر على مقدّراتها و لربّما يضطرّها إلى التنازل لاحقًا عن مؤخّر صداقها ومستحقّاتها مقابل الخلاص والنّجاة فقط من جحيمه . هل في هذا عدالة ؟ هل في هذا مساواة ؟

2 . كنّا قد استغربنا في مقال **(المسيح)** بعض الإشارات التي تدل على عدم المساواة بين الجنسين من الناحية الأخلاقيّة والاعتباريّة على الأقل .. و اليوم نقف أمام تجاوز قرآني خطير على إحساس المرأة بأنّها كائن مكتمل النّمو والقيمة :

(وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ ٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا ٱلأُخْرَىٰ) [البقرة : 282] .

الرجل لا يضل وهي تضل وتنسى ؟ وهذا حكم مطلق كما ترى – عزيزي القارئ – بمعنى شهادة أيّ رجل لا يجيد كتابة اسمه تعادل شهادة عالمتي فيزياء أمام القاضي الشرعي .. !!

و لا يتراجع عنه أو ينسخه بل يؤكّده لاحقًا بقضايا الميراث الشّرعي :

(يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلأُنْثَيَيْنِ) [النّساء : 11] .

3 . تحدّثت في مبحث (النسخ) عن قضيّة الزنى و عقوبة الرجم . ولمّا كان الشرع الإسلامي يريد أربعة شهود عدول أن يثبتوا أنّهم رأوا الميل يدخل في المكحلة .. ولمّا كان هذا الشرط مستحيلا في عهد (عمربن الخطّاب) وصار من سابع المستحيلات في عهدنا الآني .. فنحن نتساءل ما هو حقّ المرأة التي يغتصبها داعر ؟

ولا أريد أن يأتونا بأدلّة العلم و الفحص الطبي وما إلى ذلك لأنّها ليست جسرًا لتمرير أخطائهم . بل أريد من الشيخ مرتدي العمامة أو الشماغ أن يحكم لتلك المرأة .. ولن يقول سوى :

(وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ) [النّور : 4] .

(لَّوْلاَ جَآءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِالشُّهَدَآءِ فَأُوْلَـٰئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ) [النّور : 13] .

4 . قبل فترة كانت هناك ضجّة حول فتاوى تختص بتحريم أو بقبول زواج القاصر . و أنا لا يعنيني من هؤلاء مواقفهم ولا أقوالهم فما داموا يحكمون رقاب النّاس بخرافات الأديان لن يصلنا منهم خيرًا . ولكنني في ذات الوقت أعبّر ف علاً عن اشمئزازي من جرأة هكذا تشريع يجيز الزواج بمن لم تبلغ سن المحيض بعد .. بالفعل أنا مشمئز :

(وَٱللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ وَ ٱللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلاَتُ ٱلأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ) [الطلاق : 4] .

وفي تفسير هذه الآية يورد (الطبري) في (جامع البيان) : ("وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الَمحِيضِ ..." ، قال : القواعد من النساء "واللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ" : لم يبلغن المحيض، وقد مُسِسْن، عدتهنّ ثلاثة) .

ولا ريب في أنّها سنّة محمودة ورثها المؤمنون عن النّبي شخصيًّا .

5 . سأورد بعض الآيات لمجرد العادة في ذكرها و ليس لأنّها ستجد أُذنًا صاغية .. حيث أنّ علماء المسلمين ما زالوا يداهنون في قضايا كثيرة تسيء إلى الإنسانية من ضمنها مسألة ملك اليمين ، وهي ما يعمل بها الظلاميون ممن يقضون أعمارهم في الجنس الدنيوي ثم يرتحلون إلى الجنس الأخروي مع الحور اللواتي ينتظرنهم على باب الجنّة :

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَامَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُواْ) [النّساء : 3] .

على ذكر الجنّة ، فما الذي ستناله المرأة هناك ؟ فنحن نعرف بأنّ الأخوة المجاهدين الذي يسبحون بدماء المستضعفين لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار و حور عين للمضاج عة وما إلى ذلك بعد (استشهادهم) . فما الذي ستناله المرأة لو فجّرت جسدها و (استشهدت) ؟ بالفعل أنا لا أدري ؛ إذ لم أجد في (القرآن) أيّ هدايا أو مكاسب حقيقيّة من النّوع الذي سيناله الرِّجال :

(مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ) [الطّور : 20] .

يبقى أن أقول بأنّه رغم هذا الصلف الذي نراه في التعامل مع المرأة ؛ فإنّ الانحطاط الحقيقيّ الذي وصلت إليه المرأة في المنطقة العربيّة والإسلاميّة لم يكن بسبب الجاهليّة و لا بسبب التعاليم الإسلاميّة فقط .. بل أنّه ترسّخ و اشتدّ حتّى صارت المرأة شبحًا في العهود العباسيّة . أو كما يصفها (بروكلمان) : **(إنّ مؤسّسة الحريم قد وضع قواعدها العباسيّون على غرار النموذج المسيحي | البيزنطي وهي وحدها المسؤولة على انحطاط المرأة في الشّرق)** (68) .

محمّد جِنرالاً :

(محمّد) رجل سياسة محنّك وقائد عسكري عظيم . وحين أقرأ الجانب العسكري في الدين الإسلامي ؛ أفعل من خلال رؤية سأختصرها بمثالين أحدهما قرآني و الآخر نبويّ يترجمان رغبات و أفكار (محمّد) في هذا السياق :

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ)

[التوبة : 14] .

(أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَلاَّ إِلَهَ إِلاَّ اَللهَ وَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اَللهِ)

[محمّد بن عبد الله] .

هذا هو اختصار رؤيتي حول الجانب العسكريّ في الإسلام . إذ عبر هذين المثالين – أعلاه – وبهذين المعنيين تمّت شرعنة القتال إلى أن صار ركنًا وفريضةً تُدعى (الجهاد) . و هي الفريضة التي تباكى عليها (سيّد قطب) كمعلّم معاصر لكلّ من يشعرون – من المعاصرين – بالحنين إليها لما كانت تمنحه من مزايا جنسيّة و ماليّة لا يقاومها إلاّ أصحاب النفوس العالية . فالمجاهدون متأكّدون من أنّهم بقدراتهم الشخصيّة المحدودة لن يتمكّنوا من الاقتراب مسافة مترين من امرأة جميلة في عالم متحضّر .. لذا لا فرصة لهم إلاّ أن يكونوا جنودًا للرّب .

إنّ تطوّرات التشريع الحربي لم تكن وليدة الصدفة أو العشوائيّة ، بل أكاد أقول في هذا المجال أنّها ومعها نظام الجزية كانا أشدّ النظم الإسلامية دقّةً و احترافيّةً .

ولنا أن ننظر كيف تطوّر هذا التشريع على ما يورده لنا (الرّصافي) :

1 . القتال محرّم حين كان النّبي في (مكّة) .

2 . القتال مباح حين صارت للنّبي دولة في (المدينة) .

3 . القتال مأمورٌ به لمن بدأهم بالقتال .

4 . القتال مأمورٌ به حتّى لو لم يبدأهم أحدٌ بالقتال . (69)

وإذا تابعنا ترغيب (محمّد) لمناصريه بالقتال في مختلف حروبه التي خاضها بنفسه ؛ فسنجده محصورًا في أمور ثلاثة :

1 . من يقاتل معنا ويموت في المعركة فسيكون شهيدًا و له الجنّة التي من أهم مزاياها الخمر والنساء .

2 . من يقاتل معنا و ينتصر فله السبايا و الأسرى و الغنائم و الأسلاب .

3 . من لا يقاتل معنا فهو أحد اثنين إمّا عدوّ أو منافق .. و سنقاتله لاحقًا .

وهكذا فإنّ المسألة كانت محسومةً في (الطّور المدني) و لم يكن لامرئ الخيرة في أمره بعد أن اختار لهم النّبي ما يراه مناسبًا لطموحاته و لمستقبلهم كأمّة كان يريد لها النمو بأيّ ثمن .

وهكذا فإنّ القتال ، والنصر في القتال كان المعادل لاستمراريّة التوحيد و عبادة الله ؛ حتّى أنّ (محمّدًا) صرّح بذلك قُبيل معركة (بدر) داعيًا ربّه : **(الله م إن تهلك هذه العصابة اليوم ؛ لا تعبد بعد في الأرض أبدًا)** . و لم ينس الترغيب محفّزًا الأنصار ومن معه من المهاجرين : **(سيروا و أبشروا فإنّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين ؛ إمّا العير و إمّا قريش ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم)** (70) .

هكذا يمكننا أن نح كم على شدّة إصراره و قيامه بهذا الأمر الذي كما أسلفنا سيسير فيه إلى أقصاه مهما كلّفه ومهما خذله أقربون أو منافقون أو عقلاء . كما حصل حين قام سيّد الخزرج (عبد الله بن أبي بن سلول) بالإنسحاب من معركة (أُحُد) ومعه 300 مقاتل بين فارس وراجل ، وتركوا النّبي مع م ن بقي حوله من المهاجرين والأوس . ومع ذلك كان مُصرًّا على الحرب بمن معه و لم يرضَ الاستعانة باليهود حين عرضت الأوس الاستعانة بهم كحلفاء ، وقال : **(لن نستعين بأهل الكفر على أهل الشرك)** . ورغم ذلك قاتل (مخيريق) اليهودي مع المسلمين و أوصى بماله للنّبي إن هو قُتل ، وبالفعل قاتل حتى قُتل و قال عنه (محمّد) : **(مخيريق خير يهود)** . أكمل الحرب التي فرزت المسلمين بشكل واضح ففي (أُحُد) كانت الأمور غاية في التعقيد ما بين الهزيمة القاسية و فرار بعض كبار الصّحابة من المعركة و من ضمنهم (عثمان بن عفّان) فيما لم يبقَ حوله من يصدّ عنه وهو ينادي على أصحابه : **(إليّ عباد الله .. إليّ عباد الله)** إذ كان يتعرّض للطعنات والضرب . ولكنّه انتصر بأن خرج حيًّا من هذه الحرب كما أرى .

ومن خلال مواقف الحرب يمكننا أن نلمس انفعالية (محمّد) ؛ وكمثال على ذلك حادثة مقتل عمّه (الحمزة بن عبد المطّلب) يوم (أُحُد) . فلم يتمالك نفسه حين وقف على جثمان عمّه الممزّق ؛ فقال وهو يبكي : **(لولا أن تحزن صفيّة ؛ ويكون سنّة من بعدي ، لتركته حتّى يكون في بطون السّباع وحواصل الطّير ، ولئن أظهرني الله على قريش لأمثّلنّ بثلاثين رجلاً منهم)** (71) . ناهيك عن حس الانتقام الذ ي نلحظه لديه ؛ و النّاشئ من خلافات قديمة يتمّ تصفيتها عبر الحرب أو بعدها كما حصل مع (النّضر بن الحارث) الذي كان يقول : **(ما أحاديث محمّد إلا أساطير الأولين)** أو (عقبة بن أبي معيط) الذي ضرب النّبي أيام كان مستضعفًا في (مكّة) وبصق في وجهه . حيث كانا أسيرين في (بدر) فقتلهما لانتقام شخصيّ لا أكثر (72) . فيما لم يخف تشفّيه و فرحه بمقتل (عمرو بن هشام المخزومي = أبو الحكم) الذي ما أن احتزّوا رأسه وضعوه بين يديه حتّى كبّر لله وسجد خمس سجدات .. ! !

على أنّني أحبّ هنا أن أشيد بفروسيّة و كبرياء بعض أعداء (محمّد) وهم على حافّة الموت فنجد أنّ (عمرو بن هشام المخزومي = أبو الحكم) على ما يرويه (عبد الله ابن مسعود) الذي قام بدور (الضّبع) وأجهز على فارس مثخن بجراحه : **(لما ضربته بسيفي بصق في وجهي وقال لي : خذ سيفي و احتز به رأسي من عرشي يكون أنهى للرقبة)** . فيما (أبو البختري) الذي كان النّبي قد نهى عن قتله لموقف له سابق فلما أطلقه المسلمون أصرّ أن يكون رفيقه معه فقالوا له : **(ما أمرنا رسول الله إلاّ بك)** فأجابهم بجسارة الفرسان : **(لا والله إذن لأموتنّ أنا وهو جميعًا)** . وبالفعل قاتل حتّى قُتل ومعه زميله (73) .

إنّ الحرب في أيّام النّبي كانت من أجل هدف واحد لا مناص من تحقيقه وهو توحيد قبائل الجزيرة حتّى لو اضطرّه هذا الأمر إلى إبرام العقود و الصلح مع الأعداء كما حصل في (صلح الحديبيّة) إنّما كان الهدف مرسومًا و كان يعرف بأنّه سينال غايته طال الوقت أو قَصُر منذ أن صارت له دويلة في يثرب . و صراحةً أنا أستغرب ما يقوله بعض المفكّرين من أمثال (عبّاس محمود العقاد) حول حروب الإسلام : **(إنّ الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط إلاّ في الأحوال التي أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها)** (74) . و هذا كلام أقلّ ما يوصف به أنّه ساذج و لا يمكن أن يكون (العقّاد) جادًا به ؛ لأنّ الحرب كانت تجري وفق برنامج مدروس بدءًا من قتال أهل مكّة ، وانتهاءًا بإقصاء اليهود بين قتيل و هارب و منفي إذ مثّلوا – يومًا ما – قوّة فكرية عنيدة يمكنها مواجهته بالحُجج . فضربها بشدّة و لأسباب واهية على حدّ تعبير (فلهاوزن) (75) . في حين عضّ مسيحيّوا نجران على نصرانيّتهم بالنّواجذ – كما يعبّر بروكلمان – و اشترى أسقفهم (أبو الحارث) عبر جزية ضخمة الأمان و حريّة المعتقد (76) .

كانت الحرب بالنسبة لـ (محمّد) أهم من التجارة والسيادة الاقتصاديّة ، فلا يمكن التخلّي عنها فهي أصل من أصول الدعوة وبن اء الدولة . وفي هذا يقول (سيّد القمني) : **(البحث الدائم عن الغنائم هو ما قامت عليه الدولة النبويّة ذاتها)** (77) .

إثبات النبوّة .. هاجسًا :

كما أشرت في حلقة سابقة ؛ في أحد الهوامش أنّ في الإسلام بشكل عام ولعًا عجيبًا بإثبات نبوّة (محمّد) من خلال إشارات و أق وال قالها من سبقه ممّن امتهنوا النبوّة في مناطقهم . وحين نقول (امتهنوا) فهي لا تعني أكثر من توصيف منطقي لما كان يجري من استغفال للشعوب البسيطة فتكون النبوّة وظيفة أو مهنة تزدهر كلّما كان المجتمع قابلاً لنموّها وازدهارها .

وقد ذهب (محمّد) في (القرآن) إلى القول : **(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ)** [الصّف : 6] . وهنا أحبّ أن أتساءل لماذا كُتب اسمه (أحمد) في هذه الآية فقط رغم أنّه (محمّد) في كلّ الآيات الأخرى ؟ و لماذا يبشّر أحدهم بآخر يليه ؟ خاصّة و أنّه يريد إيمانهم لا تأجيله إلى أن يظهر النّبي الأفضل . و لمّا كان الأنبياء يدعون الناس إلى (الله) الذي يتخاطبون و إيّاه عبر وسيلة يدّعونها وهي (الوحي) فمن باب أولى أن يفرّ النّاس من هذا النّبي الذي يلعب دور (مقدّم الحفل) و أن ينتظروا (نجم الحفل) . فأيّة مصلحة لـ (المسيح) و ديانته في ذلك ؟ ديانته التي تختلف جذريًّا عن (الإسلام) حتّى في أيّام حياته ، إذ لم تكن دعوته سوى نسخة مطوّرة عن اليهودية كما أشرنا في مقالات سابقة . فكيف يُعقل أن يبشّر بمن سيأتي من بعده ، و أنّه ليس سوى شخصيّة ربط بين المشاهد .. ! ! خاصّة وأنّ هذا الذي يبشّر به آتٍ لينسف كلّ شيءٍ ، وسيكون أوّل مبرّراته أنّ كتبهم محرّ فة .. في حين أنّه حاول استرضاء كهنتهم و كتبهم في بادئ الأمر من قبيل : **(إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ)** [المائدة : 44] و أيضًا : **(وَآتَيْنَاهُ ٱلإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ)** [المائدة : 46] . بل أنّ هناك من أشار إلى تكييف الدين الجديد مع هوى (اليهود) في بادئ الأمر في (المدينة) و تشريع أمور لا تبتعد عن ديانتهم في شيء (78) .

بل أنّه فيما بعد أبقى على طقوس وثنيّة مثل (الحج) من أجل قريش و مكانتها التجارية ؛ متعلّلا بأنّ هذا الطقس هو من أصل الدين الإبراهيميّ . وفي ذلك يفصّل صاحب (الشخصيّة المحمّدية) وللقارئ أن يعود إليه (79) .

المهم لدينا أين كُتب اسم (أحمد) أو (محمّد) في كتب اليهود والمسيحيين ؟ فأنا قرأت العهدين (القديم | الجديد) و قرأت معظم التلمود و قرأت أر بعة أناجيل أبوكريفية ترفضها الكنيسة ولا تعترف بها من ضمنها الأشهر والأهم الذي اعتمد عليه (محمّد) في تصوّراته عن المسيحية المبكّرة و طفولة المسيح يدعى (إنجيل توما) ؛ ولم أجد أيّة إشارة من قريب أو من بعيد إلى هذه المسألة . أمّا مقالة (البارقليط) فقد فنّدها م ن لهم الباع والخبرة في اللغة اليونانية وقالوا ما معناه : **(إنّ PARAKLITOS الواردة في (العهد الجديد) تعني الرّوح الأبديّ المعزّي للمؤمنين ، فيما PERIKLITIS تعني الشّيء الحميد ومنها اشتقّ أحمد)** وهذا كلّه بسبب ما أورده (ابن هشام) في السيرة حول تفسيره للآية أعلاه ، إذ يقول و بشكل غريب كأنّ البشرية لا همّ لها سوى أن تتعلّم اللّغات الأجنبيّة لتثبت النبوءات وتميّز بينها : **(المنحمنا بالسريانية : محمّد، وهو بالرومية [أي باليونانية] البَرقليطُس)** (80) .

و يستمر الولع الإسلاميّ كما كان الولع المسيحيّ وما زال يزيّف معاني (العهد القديم) من أجل بشارات خرافيّة و غير موجودة . في حين أنّ المسلمين يذهبون إلى أبعد من ذلك في مسألة إثبات النبوّة المحمّدية حتّى لو اضطرّهم هذا إلى ابتكار وخلق (إنجيل) متهافت لغةً و أسلوبًا و مادّةً كـ (إنجيل برنابا) لا لشيء إلاّ لإضفاء تلك الشرعيّة . علمًا أن الذي لديه أدنى إطّلاع على لغة (العهد الجديد) سيعرف تمامًا أنّ هذا الكتاب قد كُتب في أجواء عربيّة إسلاميّة أندلسيّة .

وقد رفضه الكثيرون ومنهم (عبّاس محمود العقّاد) الذي قال عنه : (**فيه أخطاء لا يجهلها اليهودي المطّلع على كتب قومه، ولا يردّدها المسيحيّ المؤمن بالأناجيل، ولا يتورّط فيها المسلم الذي يفهم ما في إنجيل برنابا من التناقض بينه وبين القرآن)** (81) .

ولو كان المسلمون قرّاء جيّدين للتاريخ لما أتعبوا أنفسهم بتلك المسألة ولركّزوا جهودهم في بناء دولهم فذا أجدى سبيلا . حيث أنّ (المسيح) لما بشّر (الجليل) بما لديه من أفكار لم يؤمن به بادئ الأمر الأسبقون من اليهود إلاّ ندرة مستضعفة وبسيطة . ولمّا قام (محمّد) بتبشير (مكّة) لم يؤمن به بادئ الأمر الأوّلون من يهود و مسيحيين سوى بعض الأرقّاء و المستضعفين و الأمّيين من الوثنيين . رغم أنّ (المسيح | محمّد) كانا يقولان بصراحة نحن نعترف بمن سبقنا من الأخوة الأنبياء ، ولكن لدينا بعض الـ (تحديثات | Updates) للدين الإلهي الأزلي .. وهذا كلّ ما في الأمر .

الملائكة :

لم يذكر التاريخ دينًا يعتمد على الملائكة وما لا يُرى ؛ كما كان الأمر مع الدين الإسلامي و نبيّه (محمّد) الذي استعمل مسألة الملائكة بشكل فاعل و بكفاءة يفتقر إليها صاحباه (موسى | المسيح) . فقد وردت وبلفظين مختلفين (الملائكة | ملائكته) 73 مرّة في (القرآن) ؛ وفي كلّ مرّة يكون لها دور مختلف . والواقع أنّ تغيّرات المجتمع المدني تحديدًا كانت تفرض على (محمّد) استعمال هذه المخلوقات من أجل إرساء قواعد صارمة أو من أجل الإيحاء بأنّ اللهَ راضٍ عمّا يجري و ما إلى ذلك من احتياجات تفرضها السياسة في كل حين .

فالملائكة تظهر للخلق بأجنحتها الزاهية محلّقة بسعادة : **(ٱلْحَمْدُ للَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ)** [فاطر : 1] . و تأتي من أجل التلقيح والتخصيب الإلهي كما في حالة (مريم) أمّ (المسيح) : **(فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً)** [مريم : 17] . وفي بعض الأحيان للمناقشة بل و رفض أو استهجان ب عض المقترحات الإلهيّة : **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)** [البقرة : 30] . أو من أجل انفعالات و مواجهات مريبة مع الله شخصيًّا : **(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لأَدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ)** [البقرة : 34] . أو للسفارة والتسلية وحمل الأخبار من (الله) إلى أنبيائه : **(نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلأَمِينُ)** [الشّعراء : 193] . أو لحماية النّبي في أوقات الخطر كما حدث حين حوصر في غار (جبل ثور) مع صاحبه (أبي بكر بن أبي قحافة) و الذي كان على ما يبدو في نوبة رعب شديدة من أجل النّبي أو من أجل نفسه تلك مسألة لا تعنينا : **(إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِ نَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا)** [التوبة : 40] . أو دخولها – أي الملائكة – الحروب بشكل منظّم تحت قيادة النّبي كما حدث في معركة (بدر) : **(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ)** [الأنفال : 9] .

وكذلك الأمر في معركة (الخندق) على الرغم من أن الدور الأكبر بعد فكرة الخندق لـ (سلمان الفارسي) ؛ كان لـ (نعيم بن مسعود) على ما ترويه كتب السير (82) و لكنّ الملائكة على أيّة حال كانت موجودة : **(يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا)** [الأحزاب : 9] . وتتواجد تلك المخلوقات الوديعة في كلّ وقت حتّى أنّها تستقبل المؤمنين (أقصد المسلمين منهم فقط) على مداخل الجنّة أو في الطريق إليها : **(ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ)** [النّحل : 32] . فيما يكونون على رأس المبشّرين بالجنّة بعد (الفزع الأكبر) : **(لاَ يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلاَئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ)** [الأنبياء : 103] . وغير ذلك كثير و ما غايتنا هنا إلاّ الإشارة دون إرباك القارئ (83) . و هناك بعض الأمور غير موجود في (القرآن) ومن أهمها و أشهرها صور الوحي وكيف كان يظهر لـ (محمّد) من نوبات هياج عصبي إلى رجال من الصحابة أمثال (دحية الكلبي) إلى رؤى وأحلام وغير ذلك .. وقد فصّل فيها (الرّصافي) في كتابه (الشخصيّة المحمّدية) و يمكن للرّاغب أن يعود إليه (84) .

خاتمة :

يقول (فرويد) : **(ربّما لن نكون مخطئين كلّ الخطأ لو قلنا إنّ فكرة وجود هدف وغاية للحياة ؛ فكرة تقتصر على الدين)** (85) . وهذا ينطبق – في رأيي – على النموذج الديني الإسلامي الذي يعبّر عن هذه الفكرة بوضوح : **(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ)** [الأنعام : 162] . وهو حين يعبّر عنها يصادر ما سواها ليجد الإنسان نفسه رهينَ تلك الرّغبة المحمومة للنّجاة . النّجاة من شيء لا يعرفه إلى شيء لا يدركه .

يقوم الإسلام – كغيره من العبادات – على تجميد ما سوى العاطفة . ولا يُفهم من كلّ الآيات القرآنية التي تقول بالفكرة والتفكر والتفكير والفكر إلاّ أنّها تدعو إلى التفكّر بالنصّ ذاته و ليس في شرعيّته أو مصداقيّته أو حتّى إمكانيّة رفضه بعد أن تمّ نسخ التسامح كما أسلفنا . إنّ فكرة الإسلام – حين تتوفّر كلّ الشروط الملائمة – تحتّم على الإنسان أمرًا هامًّا و واحدًا وهو أن يختار بوضوح بين أن يكون مؤمنًا أو مؤمنًا .

إنّ المسلمين على اختلافهم و انتماءاتهم و أماكن انتشارهم في الأرض مُطالَبون بنسخ الدين ليتماشى مع روح العصر ، وأن يتصرّفوا ولو لمرّة واحدة بعقلانيّة . أمّا الآخرون – من أمثالي – فسيقفون على البعيد البعيد و ينظرون إلى خراب العالم الأكيد متذكّرين أعظم شعراء ألمانيا وربّما أوربّا ؛ (غوته) وهو يحقن الحيرة بالحقيقة قائلاً : **(من لا يملك علمًا ولا فنًّا ؛ ليس أمامه إلاّ أن يكون من المتديّنين)** .

تفتيت المقدس

استغراب :

للمرء أن يستغرب و يعبّر عن قلقه حيال أمرين يتتابعان بتناسق ورشاقة في جلسات الحوار الديني | الديني أو الديني | الإلحادي :

1 . ففي الأوّل نلحظ جرأة أتباع مذهب معيّن أو ديانة معيّنة على وصف مذاهب و ديانات الآخرين بالقصور والتزوير والتحريف . ثم يأتي الآخرون ليدافعوا عن دياناتهم و مذاهبهم وما وجدوا عليه آباءهم واصفينَ الفريق الأوّل بالدّمويّة وعدم التّسامح .. إلخ . و أنا بالفعل أستغرب – وعلى طريقة الوردي – جسارة أن يقولَ الغراب للغراب الآخر : يا أسودَ الوجه .. ! !

2 . وفي الثّاني نلحظ جرأة أتباع الأديان والمذاهب الدينيّة التقليديّة – بشكل عام – على وصف تيارات اللاّأدرية و الإلح اديّة و اللاّدينية و الإلوهيّة بالضّلال والعيش في ظُلمات روحيّة خانقة . وكأنّني بـ (الصّلعاء) تمرّ بكبرياء جريحةٍ من أمام (ذات الجديلة) فتقول لها و بلهجة شاتمة : يا ذات الجديلة .. ! !

تـوارد خواطر :

(تَطْرُدُونَ أَعْدَاءَكُمْ فَيَسْقُطُونَ أَمَامَكُمْ بِالسَّيْفِ)

[التوراة . لاويين . 26 : 7] .

(مَا جِئْتُ لأُرْسِيَ سَلاَماً ؛ بَلْ سَيْفاً)

[الإنجيل . متّى . 10 : 34] .

(سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)

[القرآن . الأنفال : 12] .

مدخل :

هل كان بوسعي أن أصلَ بكم إلى ما أريد قوله دون اختصار مُجْهد لأحداث 4000 سنة في أربع مدوّنات ؛ أخذت مني وقتًا لستُ أكيدًا إن كنتُ قد صرفته في محلِّه أم ضيّعتُه ؟! هذا سؤال يتردّد لديكم ، أو هكذا أشعر . والإجابة الأكثر منطقيّة – بعيدًا عن أنّ المنطق يفتقر إلى عصريّة "الآن" – هي ما الذي ينتظره القارئ مني تحديدًا ، و ما الذي لا يمكنه انتظاره ؟ والأمران – بالنسبة إليّ – متناظران . ففي الأوّل سأتقمّص دور (بورخيس) في محاضرته الهامّة حول (لغز الشّعر) حين قال : **(العنوان إذا لم نكن مخطئين هو "لغز الشّعر" . والتفخيم هنا يقع بكلّ تأكيد على الكلمة الأولى ؛ " لغز" . وهذا قد يدفعكم إلى التفكير في أنّ اللّغز هو الأهم . أو يمكن أن تفكّروا – وهذا سيكون أسوأ – في أنّني خدعت نفسي بالاعتقاد – بطريقةٍ ما – بأنّني قد اكتشفت المغزى الحقيقيّ للغز)** (86) .

و ذا ه و حالي مع هذا المقال ؛ و لكنّ التفخيم – فيما أحسب – يقع على اختياري الدّقيق لمفردة (الوهْم) . فهي كلمة مشجّعة للدخول إلى أجواء المقال أكثر من مفردة (جذور) التي تصيب القارئ بشيء يمكن تسميته – بأمانةٍ – عدم الاكتراث .

إنّ العنوان (جذور الوهم) جعل المتلقّي يد خل قارئًا و واثقًا من أنّي قد أكتشفتُ (الوهم) . بل دخل باحثًا عن (الوهم) و ليس عن (جذوره) . فالقارئ – كما يبدو لي من تجارب كثيرة – غيرُ معنيٍّ بأكثر من النتائج التي يراها مُعاشةً كواقع حالٍ في حياته اليوميّة ، و هو ليس مُغرمًا بالمسبّبات و السّرد المطوّل .

فهل أدركتم الوهم ؟ لا أدري ولكنني كتبتُ – متجنّبًا آفتيْ الذّاتيّة و التهوّر قدر الإمكان – ما يمكن لأيّ إنسان طبيعيّ أن يدركه ، دون الحاجة لامتلاكه دِماغًا متطوّرًا . والأهم من هذا أنّي انطلقتُ من فكرة أنّنا – كأفراد – يمكننا الاجتماع بطرقٍ شتّى وتأليف كتبٍ ضخمٍ بعنوان **(كيف يمكنك الاستمرار حيًّا من دون أن تبقى مغفّلاً)** ، أو شيءٍ من هذا القبيل . هذا ما وعدتُ به و ما حاولتُ تلبيته في مقالي ذي الحلقات الخمس .

أمّا ما لا يمكنكم انتظاره وما لم أعد به ؛ فهو التأثير المباشر . إنّ كتاباتٍ من هذا النوع – أو ما يفوقها – لن يكون تأثيرها مباشرًا ؛ خاصّةً في عالم تتسيّده الدعاية الدينيّة بمخالبها الإعلاميّة التي تقبض على الفضائيّ والأثيريّ و المطبوع . و في مجتمعاتٍ لا تشعر بالخزي وهي تتلف أجيالها مُنتظرةً مخلّصها في أيّة لحظةٍ . ففي هكذا أجواء ستكون أصوات التغيير والتنوير أشبه بما يُدعى في علم النّفس بـ (الهُلاس السّمعي) ؛ فيما آذان القوم موجّهة لالتقاط الفُتيا .

نحن نعيش في أكثر العصور العربيّة انحطاطًا ؛ فالأحذية صارت ملهمة شعرائنا و كتّابنا . و الشخصيّات الورقيّة صارت رموز أمّتنا التي لو لم تكن على قدر عالٍ من الوضاعة لما استطاع هؤلاء مضاجعتها بهذا القدر من الدناءة والخسّة . فيما حثالات ونفايات الفكر الإنسانيّ – القوميّ والدينيّ مثالاً – صارت مصدر اعتزاز بدلاً عن وضعها في مقامها الأصليّ كحالة مَرضيّة تصيب الكائنات الأشد جهلاً وانعزالاً .

فهم الدين :

إنّ فهمَ الدين ونقده يحتاج قبل أيّ شيء إلى فهم الأبعاد الميتافيزيقيّة التي قامت عليها فلسفة الأديان بشكل عام . تلك الأبعاد التي يعرّفها (إنجلز) على أنّها النظر إلى الموجودات و واجدها **(وكأنّها أشياء تامّة الصنع)** لا تتغير ولا تبلى . بل أنّ شعارها الخالد هو (لا جديدَ تحت الشّمس) . إنّها تمثّل – و بامتياز – حالة من حالات الجمود و السّكون والهدوء (87) .

و هذا ما حاولتُ ديالكتيكيًّا – وأريد منها معنى المحاججة الإفلاطوني – الإشارة إلى خطورته في الحلقات السّابقة ؛ إلى الجذر المؤسّس لتلك الحالة الباردة ، والتي لا يمكن ضمان استمراريّتها إلاّ حين إطفاء كافّة محركات العقل البشريّ ، و الاستسلام إلى لذّة الغيب . تمامًا ؛ كما تستسلم الحيتان إلى الانتحار على الشّاطئ والذي أعتبره – وقد أكون مُخطئًا إذ لستُ خبيرَ ثروةٍ سمكيّة – نتيجةً طبيعيّةً لأسباب منها انعدام الطّموح ، و قلّة الثّقة بالنّفس .. ! !

مشاكل :

لابدّ – كي ننجو بمجتمعاتنا – أن نتخلّص من خمسة أوهام تفتك بجسد الأمم على اختلافها . و إن كنتُ أرى بأنّ نسبة الجهل والتخلّف في الأمّة العربيّة هي في أعلى معدّلاتها عالميًّا ، و خاصّةً هذه الأيّام إذ لا يتفوّق عليهم إلاّ الدواب وهي أ مم أمثالهم لو كانوا يعلمون . عمومًا ، نعود إلى الأوهام الخمسة التي يجب التخلّص منها قبل الشروع بالحلم – مجرّد الحلم – بغدٍ أفضل :

1 . الحقيقة المُطلقة .

2 . الجنّة والنّار .

3 . انتظار المخلّص .

4 . تقديس الموتى .

5 . الرّعب الجنسيّ .

ومن حقّ القارئ أن يستهجنَ هذا الاختصار ، و يطالبني من باب اللّياقة بأن أسهبَ قليلاً . و سأفعل بعُجالة و أقول : أمّا (الحقيقة المطلقة) فهي ما أتت به الأديان عبر كتبها المليئة بالمغامرات الشيّقة و التي تريدنا أن نصدّق بأنّ إلهاً ما قام بخلق الكون في ستّة أيام ثمّ وضع رجلاً على أخرى في اليوم السّابع . و أنّ الخلاف هو فقط في ماهية هذا اليوم .. هل هو السّبت ؟ أم الأحد ؟ أم الجُمعة ؟ وهل جلس ليأمر مخلوقه الجديد بالمجيء طوعًا كما يرى الإسلام ؟ أم أنّه تعب و أُجهد فاستراح كما يرى اليهود والمسيحيّون ؟ هذا نموذج عن الحقيقة المطلقة التي يدّعيها السّاذجون في كتبهم .

أمّا في مفهوميْ (الجنّة | النّار) فنحن مطالبونَ بترديد كلمات (محمود درويش) الخالدة :

ما البدايةُ ؟

ما النّهايةُ ؟

لم يعد أحدٌ من الموتى ليخبرنا الحقيقة .. ! ! (88) .

فوفق هذا المنهج سيتخلّل الشّك إلى أجزاء الدماغ ، و سيكون ب وسع المرء التفكير ولو لمرّة واحدة أنّ الحكاية برمّتها عبثيّة لا تليق بالكمال الذي تحاول الأديان وصف (الإله الدينيّ) بصفته . فهو كما يرونه : كامل ، متكامل ، قادر ، متعال ، خالق ، واجد ، غير مخلوق ، ولا يحتاج لمسبّب ولا علّة لوجوده .. إلخ ؛ ثمّ يصعقوننا برغباته السّادية في أن يعاقب أبناءه بل و ينظر إليهم في الجحيم وهم يسترحمونه بصفته الأب الحاني الذي فاجأهم سلوكه المريب .. ! !

فالجنّة والنّار مفهومان يترجمان مقدار البساطة التي تحلّت بها المجتمعات السّحيقة .. فهي في (المسيحيّة) تقوم على فكرة عدالة مفقودة حيث لكن (شعب إسرائيل) في أكثر فترات انحطاطه و انقساماته ، و كانت فكرة العدالة مطلوبة بشدّة أكثر من أيّ شيء آخر . فيما أدخل (الإسلام) مفاهيم حسّيّة على الجنّة و هذا بسبب عدم وجود نقص واضح في مفاهيم العدالة لدى عرب الجزيرة وقتذاك بل كانوا يعانون من نقص حاد في الم تع والملذّات و الطقس المريح . كلّ هذا أتت به الجنّة الإسلاميّة لتتآخى فيما بعد مع فكرة (العدالة) فنخرج بمفهوم جليّ في أنّ المحرومين و المعذّبين والمظلومين في هذه الحياة سيشبعون و ينالون العدالة المنشودة لاحقًا .. في الأعلى تمامًا . وكذا نستطيع الحكم على مفهوم النّار .

فالعمليّة – أعزّائي – لا تحتاج لأكثر من نظرة تحليليّة تستند إلى أبسط مفاهيم علم النفس لنخرج بحقيقة ؛ وهي : الظالم يبقى ظالمًا و المظلوم يبقى مظلومًا ، وفي الحياة (الأخرى) سيجزيان بما جنت الأيادي والقلوب .. !! وأنا هنا أتحدّث عن المفهوم وأبعاده الفكرية ، ولا يعنيني الوصف البربريّ المرعب للجحيم أو الكسول السّاذج للجنّة كما وردا في الكتب الدينيّة . فهما مكانان خياليّان ولا ينبغي أن يأخذا أكبر من حجمهما .

أمّا مسألة (انتظار المخلّص) فهي واحدة من الدلائل الكثيرة على غباء المؤمنين بها . وهي موجود في الأديان الثلاثة و كذا في الأديان الشّرق أسيويّة .. ولا يعنينا هنا غير الثلاثة . فاليهوديّة تؤمن به ولكنها تقول بأنّ (الماشيح) الذي ظهر قبل ألفيْ عام هو نسخة مزيّفة وهم ينتظرون صاحبهم مع المنتظرين . و قيل عن هذا (الماشيح) صفات و نبوءات يمكن أن تتحقق برأيهم (89) . أمّا المسيحيّة فتقول أن (يسوع المسيح) ظهر وانتهى الأمر وهو آخر الأنبياء بل هو نبي ورب معًا ، و على الجميع الإيمان به كي يتجنّبوا العقاب الإلهي ؛ لأنّه سيعود **(سريعًا)** (90) كي يجزي و يخلّصَ المؤمنين به و ينقلهم معه إلى ملكوت الآب في الأعلى . أمّا الإسلام فهو يعترف بوجود هكذا شخصيّة وبربطها بعودة (المسيح) أيضًا . و لكنّ المذاهب الإسلاميّة تختلف في تعيينه . فالشّيعة الإثنا عشريّة حسموا أمرهم وقالوا بأنّ صاحبهم من نسل (الحسين) و قد دخل السرداب ولم يخرج و هم منتظرون حتّى النّهاية . وأنّ الإيمان بولايته ركنٌ من أركان الدين القويم ؛ خاصّة وأنّهم أجابوا على سؤال الطفولة الخاص بسنّ المهدي – إن وجد – حين غيبته فردّوا على لسان أئمّتهم : **(إنّا معاشر الأئمة ننشأ في اليوم كما ينشأ غيرنا في السّنة)** (91) . أمّا سبب غيابه فتلك قصّة أخرى حيث يقولون أنّه غاب خوف القتل والاضطهاد الذي يُمارس من قبل الظالمين . وإنّه سيظهر لاحقًا ليؤدّب الجميع و ينفّذ الأهداف الإلهيّة المرسومة . بل وأنّ حديثًا متداولاً عندهم يقول : **(سمعت أبا جعفر (الباقر ع) يقول : إنّ للقائم غيبة قبل أن يقوم ، قال : قلت : ولم ؟ قال : يخاف . قال زرارة : يعني القتل . وفي رواية أخرى : يخاف على نفسه الذبح)** (92) . و أمّا عمره فهم لا يتحرّجون أن يصل إلى أرقام ألفيّة أو إلى ما لانهاية لأنّهم يؤمنون بأنّ ذلك على (الله) هيّن .

أمّا السُّنّة فقد استهجنوا فكرة الشّيعة و قالوا إنّ المهدي من نسل (الحسن) وهو لم يولد بعد ، و إنّه سيظهر حتّى لو بقي يوم واحد من عمر هذا الكوكب المسكين كي يقاتل اليهود و النصارى والمشركين ، وذلك تصديقًا لقول النّبي : **(المهدي مني أجلى الجبهة أقنى الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جورا وظلما يملك سبع سنين)** (93) . و في المحصّلة الجميع يؤمنون بأنّ القتال سينشب آخر الزمان في هذه المنطقة الشّرق أوسطيّة و أنّ الحجر – حتّى الحجر – سيكون له دور في المعركة : **(عن رسول الله ص : لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود ، حتى يقول الحجر وراءه اليهودي يا مسلم : هذا يهودي ورائي فاقتله)** (94) . ولك أن تتخيّل عزيزي القارئ – المؤمن – كيف أنّك أسير الأساطير و أبطال الأفلام الكارتونيّة الذين يحضرون – عادةً – في آخر الحلقة كي ينتصر الخير المطلق على الشّر المطلق .

و فيما يخصّ (تقديس الموتى) فهي مسألة نلاحظها في المسيحية كما في نظرتهم لـ (المسيح) أو بعض القدّيسين و أجسا دهم . و في الإسلام بشكل أوضح و خاصّة في المذهب الشّيعي الإثني عشري . و بالطبع لدى الفرق الصّوفيّة كافّة . وهذه الفكرة ببساطة هي تطوّر لعبادة الأسلاف ولكن في ظلّ خيمة التوحيد . وهي في النّهاية – كما أرى – تعبير عن العجز الذي يعانيه الإنسان الجاهل و الباحث عن اللّمسة الأبويّة لتعينه على العبور ، لأنّه مهزوم و غير قادر على الفعل دون تخيّلات و تأثيرات القوى الغامضة . و قد قلتُ يومًا في هؤلاء الجهلة : **(أُصَدِّقُ البُؤَسَاءَ إِذْ مَا أَقْلَقُوا غَفْوَ الإِمَامِ بِأَنْ : أَغِثْنَا)** (95) .

أمّا (الرّعب الجنسيّ) فكارثة اجتماعيّة و تربويّة يجب التوقّف عندها ، ومناقشتها من وجهيها (النفسيّ | الأخلاقيّ) . غير أنّي سأحجم عن الحديث حول ممارسات جنسيّة غير سليمة أو مرضيّة أو شاذّة و مهما كانت التسمية ، و أكتفي بما قاله عالم الأحياء الأميركي (ألفريد كينزي) لأحد علماء النّفس حول تلك النشاطات الجنسيّة : **(انظروا إلى موقفكم [يخاطب علماء النّفس] ؛ إنّكم لا تشكّون بأنّ الاتصال الجنسيّ بين أفراد الجنس نفسه هو شذوذ ، وإنّ الاستمناء علامة عدم النّضج ، و إنّ العلاقات الجنسيّة خارج نطاق الزّواج تحطّم الأسرة . عندكم إجاباتٌ جاهزة لكلّ شيء ، و تعرفون كلّ شيء مسبقًا ، فلماذا يجب القيام بالبحوث العويصة ؟)** (96) . وسيكون محور حديثي هنا هو الجنس الطبيعي بين الذكر والأنثى . ففي المجال النّفسي أجدني ميّالاً إلى تبسيط (فرويد) للمسألة في جزئيّة : **(إنّ الغريزة الجنسيّة لدى الكائنات الإنسانيّة لا تر مي إطلاقًا في الأصل إلى خدمة التناسل ، و إنّما هدفها كيفيّات معيّنة للحصول على اللّذة)** (97) . وسنرى لاحقًا كيف يتعامل المنطق الدينيّ مع مفهوم اللّذة .لكنّني أودّ هنا استغلال الفرصة و مخالفة (فرويد) في مسألة الجنس الطفوليّ ، و التشكيك كما فعل الكُثيرون – الإتنوغرافيّون مثالاً – في شموليّة (مُركّب أوديب) .

و عودًا إلى موضوعنا نجد في المجال الأخلاقيّ ؛ بأنّ الدين الذي ظهر عبر أنبياء كان هدفهم أخلاقيًّا – كما يُفترض – فصادروا مبادئ الأخلاق العامة والمعروفة حينذاك ، و التي اكتسبتها الشّعوب بجهد جهيد . وأنتجوا ما لدينا الآن في المجتمعات الدينيّة من مفاهيم مشوّهة و غريبة ، تتآخى مع العادات والأنماط القبليّة لتحارب أو تحرّم بشكل قاطع فعاليّات جنسية من قبيل (الاستمناء) أو ظواهر (الاختلاط) بين الجنسين في الحياة العامة و غيرها . بل أنّ في بعض البلدان كلّ ما يخصّ الجسد هو أمرٌ قذر لا يجوز للمؤمن الشّريف سليل العائلة الأصيلة الحديث عنه حتّى تلميحًا . و الأدهى من كلّ ذلك أنّ بعض العوائل المتخلّفة ما زالت تحسب على فتياتها عدد المرات التي يغسلن فيها أجسادهنّ بالشّهر الواحد . فإذا تجاوزت المرّتين فإنّ وراء الأكمَة ما وراءها .

وهذا ليس كلامًا مرسلاً بل أنّه نابع من خلال معلوماتي الشّخصيّة عن بعض العوائل في (العراق) و (ليبيا) على سبيل المثال لا الحصر . و هكذا سلوكيّات تُذكّرنا بقوانين الرّقابة الأخلاقيّة التي فُرضت خلال القرن التّاسع عشر في بعض دول أوربا ومن ضمنها (فرنسا) ، ونعرف جميعًا – أو المهتمّون منّا – بأنّ أعمال العظماء من أمثال (رونسر | لافونتين | روسو | فولتير | بريغو | بيراني | بودلير | فلوبير .. إلخ) كانت ممنوعة . بل أنّ بعض هؤلاء تعرّض إلى محاكمات فكريّة و لم يُفرج عنه إلاّ بعد توقيع وثيقة تؤكّد على احترامه للأخلاق الدينيّة (98) .. ! !

أحسب بأنّ مردّ (الخلل الجنسي) هي الأوامر الدينيّة التي كان ينتظرها الإنسان المؤمن و المُضطهد والبسيط ؛ ليقوم بتنفيذها دون أدنى تفكّر بمضامينها . و التي كانت تدعو إلى التقشّف الجنسيّ و اقتصاره على مفهوم الغريزة الحيوانيّة (التكاثر) . فانظر إلى أوامر (بولس) في (العهد الجديد) : **(يَحْسُنُ بِالرَّجُلِ أَلاَّ يَمَسَّ امْرَأَةً)** [كورنثوس الأولى . 7 : 1] . أو أوامر (محمّد) في (القرآن) : **(فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ)** [النّساء : 3] . فهكذا نوع من الأوام ر الدينيّة يعبّر بصراحة عن أنّ المرأة مشكلة . وأنّها كائن تابع حتّى في العمليّة الجنسيّة وليست شريكًا ينتظر اللّذة .. بل لأجل التكاثر فقط . أو كما يعبّر عنها (بوعلي ياسين) بما معناه : **إنّ الدين ينظر إلى المرأة كموضوع وليس كذات في النّشاط الجنسيّ ، والأوامر الدينيّة الخاصّة بالجنس توجّه إلى الرجال و ليس إلى النّساء . فالعملية تكنيكيّة ؛ ولا تتضمن أيّ شيء من اللّذة أو المشاركة الفاعلة أو حتّى المنفعة من قبل المرأة** (99) .

إنّ مفهوم الجنس في الدين محكوم عبر الثقافة البطريركيّة | الأبويّة المتسلّطة التي تبيح للرّجل التمتّع بالموجودات من النّساء دون الإشارة أو حتّى التفكير بإمكانية الشّراكة . وهكذا فكرة تؤدّي قطعًا إلى انهيار الكائن الحيّ داخل المرأة . وعدم تصريح المرأة بكلّ هذه المعاناة لا يعني انتفاء وجودها . فالمرأة في هذا المحور على نارين : إمّا جاهلة ولا تع رف معنى اللّذة وهذا يفيد الرجل الذي يكون مطمئنًا للاستمرار في جريمته . أو صابرة و هي – بالنسبة إلي – أنبل الكائنات .

فهم (الجنس) وتربية الأجيال على التثقّف جنسيًّا سيقلّص المشاكل التي تواجهها المجتمعات المكبوتة والتي تتّجه بعض نسائها إلى الزّنى للحصول على لذّة مفقودة ، أو إلى التعرّي لعشرين رجلاً عبر (الانترنت) للشّعور بأنّها مرغوبة . و ما إلى ذلك من مسائل نفسيّة يجب الوقوف عليها لا الهرب منها . وأيضًا سيقلّص عدد الرّاغبين بتفجير أجسادهم الفتية من أجل مجموعة حوريات فاتنات ؛ في حال وجدوا حوريّاتهم ومعشوقاتهم وزوجاتهم على أرضهم وفي وطنهم دون الحاجة للصعود إلى فوق .. ! !

حلول :

إنّ الخلاصَ الفكريّ مفتاح التطوّر . إذ لا يكفي أن تتحرّر الأمم من النفوذ الأجنبي أو سلطات الاحتلال على أراضيها ؛ بل ينبغي السّهر على تحريرها من عبودية الغيب والفكرة الدينيّة التي كلّما مرّ يومٌ ازدادتْ تأثيراتُها السّلبيّة على البشريّة جمعاء .

و يمكنني هنا أن أقترح حلولاً – قال بها غيري – ولكنّي أؤمن بصوابها ؛ والصّواب هنا أريده مجرّدًا :

1 . **<u>تطهير النّشء</u>** : يكمن التغيير – كما أرى – في قدرتنا على التعاطي مع مفهوم (الغرس) بشكل إيجابيّ ؛ متوخّين الحذر التّام في تعاملنا مع تلك العقول الفتيّة التي تتمّ تنشئتها على مفاهيم الموت والقتل والدّمار . فهذا (سيّد قطب) لا يخفي ولعه بتلك الفئة العُمريّة حين يصرّح : **(أؤمن بقوّة المعرفة ، أؤمن بقوّة الثّقافة ، ولكنّني أؤمن أكثر بقوّة التّربية)** (100) .

و (الغرس) في علم التربية يعني الشيء المكرّر ؛ أو الذي يعاد تكراره في مراحل عمرية مختلفة من أجل أن يبقى عالقًا في ذهن الطّالب . و في حالتنا العربيّة يقابل مادة التربيّة الدينيّة . وهي مادّة كفيلة بتخريج أجيال من القتلة و الكارهين و الممسوسين بهواجس القيامة و الرّاغبين بالموت عوضًا عن الحياة . وحتّى لو فكّروا في عيشها فستكون على طريقتهم المتطرّفة التي تقول بأنّهم (ناجون) ، و بأنّ الآخرين (هالكون) . فلم يخرج (بن لادن) من فراغ ؛ بل من تربية دينية يقوم بتنفيذ أصولها بأمانة . ولم يخرج (حزب الله) و (حماس) و (الجهاد) و (فتح الإسلام) و (المحاكم الإسلاميّة) و بالطبع (طالبان) من ثقب في الحائط بل خرجوا من رحم التربية الدينيّة والتي تؤهّلهم للقتل وتعدِهم بالجنّة . وهنا يقع التمايُز بين القانون الوضعي الذي يعاقب القاتل وبين القانون الإلهي الذي يجزي القاتل بالجنّة . وهكذا نرى أنّ التعامل مع الثقافة دينيًّا هو ما أنتج لنا حركات إرهابية أخرى – غير إسلاميّة – من أمثال (أمناء الهيكل) و (حي فاكيام) و (غوش أيمونيم) اليهوديّة ، بل

وتنظيمات على المستوى السياسيّ مثل (حزب شاس) اليهوديّ الشرقيّ المتطرّف . و أيضًا حركات من قبيل (كو كلوكس كلان) و(النّازيّون الجدد) التي تعتقد في النّهاية بالإيمان المسيحيّ وتفوّق الجنس الأبيض .. إلخ .

إنّ مادّة التربيّة الدينيّة مفتاح التطرّف ؛ فكلّ ديانة ترعب أبناءها بأساطير الأولين دون التفاتة حقيقيّة للحاضر و الواقع المعاش هي ديانة فاشلة . بل أنّها تمثّل تصادمًا كارثيًّا بين حقائق الرياضيّات و الفيزياء والأحياء و العلوم و حتّى التاريخ .. و بين مجموعة قصص خرافيّة من الممكن أن تخيفَ طفلاً في الخامسة من عمره فينام مبكّرًا دون أن يزعجَ والديه .. !!

و لربّما يبادرنا أحدهم فيسأل : هل دراسة الدين سيئة إلى هذا الحد ؟ و نجيبه : السوء مصطلح يندرج تحت خانة أمور نريدها و لا نريدها . والدين ليس كذلك ؛ لأنّه موجود على أرض الواقع ، ومتغلغل في نسيج المجتمعات ، فلا يجب التعامل معه على أساس نحبّه أو لا نحبّه . بل يجب التعاطي معه على أسس من قبيل هل هو مفيد ؟ هل هو هام ؟ هل يخدم الجيل الحالي والأجيال التي تليه ؟ هل قوانينه و تشريعاته الجامدة ضروريّة في وقت لا نطبّقها فيه و نبقي عليها لمجرد الشّعور بطمأنينة زائفة ؟ هذه هي الأسئلة التي يجب أن تُسأل .

لستُ ضد تدريس مادّة (الدين) ، و لكنني أدعو إلى تنظيفها و تطهيرها من الكراهية . ثم يجب أن تكون هناك مادّة (تربية دينيّة) تشمل جميع الأديان ، إذ من الجيّد للطلاّب معرفة إرثهم و دراسته . و الأديان فيها جانب تاريخي وتراثي لا يمكن أن نتنكّر له . و لكننا نريد لهم دراسة الدين من باب العلم بالشّيء . أريد لابني – مثلاً – الذي لو أتى إلى الح ياة أن يدرس الأديان الرافدينيّة والفرعونيّة و اليهوديّة والمسيحيّة والإسلاميّة و البوذيّة والزرادشتيّة والهندوسيّة و السيخيّة و التاويّة و الشنتويّة و الكونفوشيوسيّة و الـ New Age وغيرها في المدرسة و على مراحل عمريّة متتابعة ؛ حتّى يتشرّب بها جميعًا ويتعلّم التّسامح . أريده أن يفهم أهميّة الدين من خلال الدراسة والبحث وليس من خلال الجبر

والتلقين . أريده أن يفهم الدين كونه مجموعة قيّم شخصيّة لا تؤهّل صاحبها لأكثر مما لديه ، وليس حزمة حقوق ستُدخل حاملها الجنّة . أريد لابني الذي لا بدّ أن يأتي في يوم من الأيّام ألاّ يخشى من التصريح بأنّه (لا ديني) أو (ملحد) أو (لا أدري) .. إلخ .

2 . **حصان الديمقراطيّة** : يجب أن نكون واضحين و نقول بأنّ فكرة الديمقراطيّة هي فكرة طوباويّة و تطبيقاتها غير متّفقة مع مفهومها النظريّ الأصليّ . وإنّني أؤمن بأنّها لا تخدم المنطقة العربيّة و لا أدعو إليها صراحةً ؛ لأنّها تحتاج إلى وعي وتراكم ثقافي هائل لدى الشّعوب ، وهو الشّرط الذي تفتقر إليه شعوب المنطقة العربيّة التي تنهل معارفها من الانترنت – بجانبه السّطحي – و القنوات الفضائيّة – بمحمولها الرّخيص – وبالطبع من الكتب الدينيّة .. ! !

ولكن مع ذلك هناك بعض الممارسات التي أدعوها (انتخابيّة) وليست (ديمقراطيّة) ؛ في بعض الدول العربيّة ، كما في انتخابات النقابات و البرلمانات والمجالس المحلّيّة و الأندية الرياضيّة و غيرها . وهنا يجب أن نحذر كلّ الحذر من الأسماء التي تترشّح لتولّي هذه المناصب .. فحتّى في الدول العربيّة التي تنتهج (العلمانيّة) شكلاً سيؤدي صعود المتديّنين والمنتمين إلى تيّارات فكريّة تحمل أجندات لأسلمة المجتمع – مثلاً – إلى كارثة اجتماعيّة نحن بانتظارها الآن – وللأسف – في ثلاث دول عربيّة على الأقل وهي (مِصر | تونس | المغرب) . والمتابع لما يجري في هذه البلدان سيفهم مغزى إشارتي ، وهو يعلم بأنّ وصول هذه الفئات إلى مراكز متقدّمة في الدولة سيعقبه نحر الحصان الديمقراطيّ فورًا ، ليشرعنوا استيلائهم على السّلطة – نموذج (حماس) مثالاً – . وما دمنا قد أتينا على ذكر (حماس) فنقول بالنسبة إلى بلدان قلقة بسبب الإرهاب أو الاحتلال أو الإرهاب والاحتلال معًا مثل (العراق | فلسطين) فالحالة الإسلامويّة أصبحت واقعًا ، و شعبا الدولتين يحصدان الآن ما بذره الشّيطان لا أكثر . و في دول الكساد الفكريّ والتي تحكمها أنظمة شموليّة خانقة مثل (سوريّا | ليبيا) سيكون صعود الدين أمرًا حتميًّا في حال انهيارها – النموذج العراقي مثالاً – لذا أنا أدعو وأصلّي أن تبقى هذه الديكتاتوريّات ، فأن تُلاحق باسم (الطاغية) أهون ألف

مرّة من ملاحقتك باسم (الله) . فيما يخصّ دول الخليج العربيّة السّت ؛ فهي في مجملها دول أمّيّة في مجال الحريّات ومبادئ الانتخابات ، ونستثني بالطّبع (الكويت) التي كان وما زال دورها تنويريًّا على مستوى هذه الدول السّت . ولكنّ التجربة الكويتيّة أيضًا تعاني من ورم سرطانيّ يسمّى بـ (النوّاب الإسلاميين) ، وهذا الورم بقبضتيه (السّنيّة | الشّيعيّة) يؤدّي بالتدريج إلى انه يار معدّل الوعي في (الكويت) و الذي وصل هذه الأيّام إلى مستوى مخجل .

لذا نؤمن أنّ صعود هذه الأفكار إلى سُدّة الحكم لن يجلب إلاّ الخراب . فانظر – يا رعاك الله – إلى الهمجيّة الإيرانيّة لتعرف ماذا فعلت بهم ولاية الفقيه . وانظر إلى الكبت السّعودي لتعرف كيف يمكن أن يكون اتّحاد السّيف والدين مرعبًا . و انظر إلى نواة التطرّف السّني في شمال لبنانَ ، والشّيعي في جنوبه . انظر إلى غزّة التي يتباكى عليها الذبّاحون كيف أمست وبسبب من كل هذا الخراب ؟ وانظر إلى التاريخ و اجلب لي دولة واحدةً قامت لها حضارة حقيقيّة بسبب الد ين .. و أرجو ألاّ تمارس الغباء المعرفيّ وتحدّثني عن (بغداد) في عصر (هارون الرشيد) لأنّها كانت مرحلة انتاج فكري وثقافي وترجمة .. أمّا الحضارة والدول المستقرة فشيء آخر . فالمنطقة العربيّة الحاليّة لم تشهد حضارة لها شأن هام إلاّ في ثلاث حالات (العراق | الشّام | مصر) . ولكنّنا – كعرب – لا نعرف معنى الحضارة ، ومازال البعض منّا يعتقد بأنّ الحضارة هي أن تتواجد مجموعة بشرية كانت لها حدود جغرافيّة في وقت سابق ، وتركت مجموعة أبنية و أواني و فخّاريات . وهذا أسوأ ما يمكن أن أسمعه في حياتي .. ! !

3 . **تشريع القوانين :** يؤمن المسلمون – وهم أكثر ما يعنيني – بأنّ (الحاكميّة) لله . و أنّ النّبي بلّغَ أوامر (الله) التي يجب أن تحكم المجتمعات الإسلاميّة أو المحتلّة بمبدأ (الفتح) لاحقًا . ويحدّد (القرآن) تلك المسألة بوضوح في آيات عدّة .. منها :

(مَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ) [المائدة : 44] .

(مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً) [الأحزاب : 36] .

(يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ) [النّساء : 59] .

والسّؤال الذي يسأله أيّ عاقل : لماذا يجب أن أقبل بأن تحكمني قوانين عام 630 مـ فيما أعيش واقعًا عام 2008 مـ ؟ ولماذا لا يريد الأخوة ممّن لديهم شعور – لا أعرف إلامَ يستند – بأنّ القرآن صالح لكلّ عصر و زمان و بلد .. أن يقتنعوا بأنّ المشاكل الصغيرة التي كانت تحدّث في منطقة جغرافيّة صحراويّة بين (مكّة) و (المدينة) و (الطّائف) هي التي أسّست لهذه النّصوص .. فكيف أحكم بها (بغداد) و (القاهرة) و (دمشق) ؟ بل الأدهى من ذلك كيف يمكنها أن تصمد في حكم (ستوكهولم) أو (بروكسل) ؟

بل كيف يمكن وصف هذه القوانين (الإلهيّة) بأنّ عدالتها مطلقة و صلاحها لا ينتهي .. فيما القوانين (الوضعيّة) تميل مع الهوى وصلاحها محدود (101) ؟ هل القانون (السّويدي) يتّبع الهوى في معاملتي – شخصيًّا – كمقيم على أراضي الدولة ؟ هل قوانين (السّعوديّة | إيران) بصفتهما تطبّقان شرع (الله) أعدل من قوانين (السّويد) أو (سويسرا) ؟ هل هناك سفاهة أكبر من سفاهة القائلين بهذا الرأي ؟

ثم – ولنبتعد قليلاً – كيف يجرؤ المسلمون على شتم الآخرين ثم مطالبتهم بالعدالة والاحترام المتبادليْن ؟ فالمسلم ينشأ في بيئة فكريّة تقول له أنّ (الآخر) غير المسلم (نجس) :

(يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) [التّوبة : 28] .

وحين نبحث عن تفسير هذه الفكرة في أمّهات الكتب سنجد :

الزّمخشري : **(لأنّهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم. أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها، مبالغة في وصفهم بها . وعن ابن عباس رضي الله عنه: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير. وعن الحسن: من صافح مشركاً توضأ)** (102) .

القرطبي : **(اختلف العلماء في معنى وصف المشرك بالنّجس؛ فقال قَتادة ومَعْمر بن راشد وغيرهما: لأنه جُنُب؛ إذ غسله من الجنابة ليس بغسل . وقال ابن عباس وغيره : بل معنى الشرك هو الذي نجسه . قال الحسن البصرِيّ من صافح مشركاً فليت وضأ. والمذهب كله على إيجاب الغسل على الكافر إذا أسلم)** (103) .

الشّوكاني : **(مبالغة في وصفهم بذلك حتى كأنهم عين النجاسة، أو على تقدير مضاف : أي ذوو نجس؛ لأن معهم الشرك وهو بمنزلة النجس. وقال قتادة ومعمر وغيرهما: إنهم وصفوا بذلك لأنهم لا يتطهرون، ولا يغتسلون، ولا يتجنبون النجاسات)** (104) .

الطّوسي : **(ظاهر الآية يقتضي أن الكفار أنجاس، ولا يجوز مع ذلك أن يمكنوا من دخول شيء من المساجد، لأن شركهم أجري مجرى القذر الذي يجب تجنبه، وعلى هذا من باشر يد كافر، وجب عليه أن يغسل يده إذا كانت يده أو يد المشرك رطبة . وإن كانت أيديهما يابستين مسحها بالحائط. وقال الحسن: من صافح مشركاً فليتوضأ)** (105) .

الطبرسي : **(قال قوم من الفقهاء إن الكافر نجس العين وظاهر الآية يدل على ذلك وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين واتبع نهيه قول الله تعالى "إنما المشركون نجس" الآية وعن. الحسن قال: لا تصافحوا المشركين فمن صافحهم فليتوضأ وهذا يوافق ما ذهب إليه أصحابنا من أنَّ من صافح الكافر ويده رطبة وجب أن يغسل يده وإن كانت أيديهما يابستين مسحهما بالحائط)** (106) .

من أجل كلّ هذا نقول : يجب على الدول التي تريد النّجاة و العبور إلى جهة المستقبل أن تعي أمرًا واحدًا طالما كرّرتُه و مللتُ تكراره : عند كلّ تخلّف علميٍّ ابحث عن استشراء الفساد و الدين . عند كلّ تخلّف اجتماعيٍّ ابحث عن استشراء الفساد والدين . و عند كلّ تخلّف دستوريٍّ ابحث عن الدين .. ! !

4 . **تحييد الثّقافة** : لا أمقت في الطّغاة شيئًا أكثر من مقتي تجييرهم الثّقافة لحساب مخطّطاتهم المنحلّة إنسانيًّا . فكلّ طاغية يحاول أن يكسب النُّخب ومن خلفها الجماهير (العريضة) بسلاح الثّقافة . فترى و بمرور الزّمن انهيار الحالة الثّقافيّة لأفراد المجتمع المحكوم من قبل طاغية ما و تحوّلهم – أي الأفراد – إلى ببغاوات تمجّد صنائع الحاكم غير المسبوقة . فالطّاغية – كما يعبّر الكواكبي المقبول عندي رغم كلاسيكيّته – شخص عاجز بلا إرادة و لا حول له ولا قوّة إلاّ بالمتمجّدين من أعوانه و عمّاله (107) .

و الأمر ذاته ينطبق على المسألة الدينيّة ؛ إذ لا يمكننا مجادلة الثقافة الدينيّة – مثلاً – في الوقت الذي يتكاثر فيه المجّدون أو المتمجّدون من حولها .. مسيطرين على كلّ ما يُكتب وما يُقرأ وما يُقال تنفيذًا لـ : **(مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)** [ق : 18] . فأنت ترى – عزيزي القارئ – كيف تتمّ محاكمة الإبداع الأدبي دينيًّا ، وكيف تتمّ مصادرة المنشورات والمطبوعات باسم الدين ، و كيف يخاف هؤلاء الظلاميّون على (الله) لدرجة أنّ كلمة واحدة في قصيدة مجهولة لشاعر مغمور قد تؤذي و تخرق مفهوم التوحيد الأزليّ .. ! !

و ليس أسوأ من منعهم عيون الأدب العالمي و حتّى العربي لأسباب واهية ؛ سوى الشّعوب التي لا تعرف عن هؤلاء الكتّاب أو مؤلّفاتهم شيئًا إلاّ أنّها كتب ممنوعة . وبعضهم يمتلكها فعلاً ولم يحاول قراءة ما فيها . إنّه يمتلكها لمجرد الإحساس بأنّه يخرق الممنوع والتحريم .. ! ! و هنا سأبتعدُ قليلاً و أُدرج مثالاً سهلاً عن شخصيّتين تراثيّتين و مهمّتين في الأدبين العربيّ و العالميّ (المعرّي | دانتي) . و أثق بأنّ كلَّ من لديه ربع ثقافة أو أقلّ يعرف الجدل القائم منذ عقود حول احتماليّة تأثّر (الكوميديا الإلهيّة) لـ (دانتي) بـ (رسالة الغفران) لـ (المعرّي) .

ولكن مَن مِن هؤلاء قرأ العملين و خرج بتلك القناعة ؟ هل قرأ أحدهم – أقصد أهل التصريحات الرّنانّة – (رسالة الغفران) ؟ هل عرفوا لماذا (الحطيئة) و (الأعشى) في الجنّة ؟ أو (عنترة) و (طرفة) في النّار ؟ هل وقفوا على حقيقة رأي (المعرّي) وما يودّ قوله ؟ هل قدّروا تلميحاته حول (الزّنادقة) الذين صادفهم في النّار حق تقديرها ؟ و أيضًا ، هل عرفوا لمَ حورب كتاب (دانتي) ؟ هل يعرفون أين وضع (دانتي) (محمّدًا) و (عليًّا) ؟ هل قرأ أحدهم نصوص تلك (المنزلة) من باب التفجّع والأسى ؟ هل طالعوا مكانة (صلاح الدين الأيوبيّ) في الملحمة ؟ أو (ابن رشد) ؟ أو (ابن سينا) ؟ (108) .

كما نسأل هل تمّ تسويق (دانتي) – عربيًّا – من باب فكريّ صرف ؟ أم لإثبات صفة الشرّ على منتجه لا أكثر ؟ وأخيرًا هل تأثّر (دانتي) بـ (رسالة الغفران) لـ (المعرّي) ؟ سأجيب : نعم ، بل أنّها سرقة فكريّة وليست مجرّ د تأثّر . ولكنني لم أحكم دون قراءة ولم تبهرني المقتطفات المعلّبة والأحكام المتداولة . لذا ، أظنّ بأنّنا مطالبونَ بمراجعة النتاج الفكريّ الإنسانيّ ، و تغيير طريقة تعاملنا مع تراث الشّعوب الأخرى ، و طمر تلك الخصلة المستهجنة بإخضاع نصوص الأدب إلى نصوص الدين . حينها فقط سيمكننا أن ننعم بمجتمع مثقّف لا ينقاد وراء الهوى ، ولا يفتح فمه عاجزًا أمام سيل كلاميٍّ سطحيٍّ و بلا قيمة – غالبًا – يوجّهه رجال (الإكليروس) في خطبة أو رسالة أو فتوى أو قدّاس . ولنؤمن جميعًا ؛ عندما نحيّد الثقافة ونجعلها أمميّة الطابع و الغايات .. لن يكون هناك خوف على مبدأ الإنصاف .. أبدًا .

الآنَ وقد وقفتُ بعُجالة على هذه المحاور الأربعة ، أقول بأنّ الإمساك بتلك الرّباعيّة هو المفتاح للتطوّر و النهوض ، و ضياعها من أيدي المتنوّرين الأحرار غير المصابين بداء القطيع والعبادة الفجّة سيؤدّي – بالضّرورة – إلى ضياع شعوبنا و إلى الأبد . لأنّني أؤمن بأنّ النّهوض إن لم يكن في هذا العصر فلن يكون قبل ألف سنّة ربّما . هذا العصر فرصة قد لا تتكرّر .. فإمّا الآن أو أبدًا .. ! !

توضيح :

قد يسأل أحدهم : ألم تعِدنا في بداية مقالك باحترام العابدين و عباداتهم .. فما يمنعك عن هذا . و لمَ نراك تسفّه أحلامنا ؟ و سأرد : لقد قلت بالنّص :

(أكنّ كامل الاعتزاز لكل ممارسي العبادات في حيّزها الروحانيّ (لا) الدعويّ والتبشيريّ . وكلّي تقدير لنوايا الأنبياء أصحاب تلك الرسالات ؛ حين (ابتدعوا) تلك الفكرة صارمين مبتغين الإصلاح .. ثمّ تسرّبت المسبحة من بين أيديهم بعد ذلك . إنّما يجب أن نقول بأنّ الأخطاء التي مورست باسم الإله وباسم الدين و عبر الأنبياء أنفسهم ليست عابرةً ، والجرائم الدمويّة التي رافقت تلك الأديان ليست حفلة معجّناتٍ باريسيّة يمكن التهاون في شأنها) (109) .

ولم أخرج عن تلك الوعود . وكلامي كلّه منصّب على الممارسات أو الأشخاص الذين يبشّرون بتلك الممارسات . أمّا قسوة بعض المصطلحات فهي من باب التوصيف ليس إلاًّ . فكما أنّ (القرآن) يحترم البشريّة جمعاء – بلا شك – و لكنّه في لحظة التّوصيف الدقيق يحتاج عبارات من قبيل **(قرد | خنزير | حمار | كلب .. إلخ)** . أنا أيضًا من باب التأسّي بهذا المنهج سمّيت بعض الممارسات لا أكثر ؛ وهي في النّهاية توصيفات لا تطعن في الأفراد إنّما وُجّهت بشكل عام . وهذا واجب أخلاقيّ – قبل أيّ شيء – أفخر به ولا أهرب منه ، فهؤلاء تجب مكافحتهم لأنّهم عقبة النّهوض . و هم – أيْ الدّعاة والتبشيريّون في كافّة الأديان – كما يصفهم البروفيسور (ريتشارد داوكنز | Richard Dawkins) من جامعة (أوكسفورد) : **(شركاء في عمليّة "لاتفكير" واسعة تُدعى "الإيمان")** (110) .

ثُمّ لمَ الخشية من أن نقول ما نشاء ؟ فالأديان – تَباركَ الوهّاب – تمتلك المئات من أبواق التمجيد الفارغ ، و كلّها معقود بأطراف اللّحى و الصّلبان .. من فضائيّات إلى صحف إلى إذاعات إلى مطبوعات . فيما لا يوجد نافذة واحدة أُعطيت ترخيصًا كقناة تبشّر بما هو ضدّ الأديان .. ولن أقولَ (إلحاديّة) لأنّها تصيب البعض بالحكّة .

تحذير :

أحبّ هنا أن أكون صريحاً و أعبّر عن اشمئزازي من بعض الأسماء التي تدّعي (الليبرالية) أو (العلمانيّة) أو (اللاّدينيّة) أو (التنوير) رغم أنّها مناهج مختلفة في كلّ العالم سوى عند بسطاء العرب الذين مازالوا يعتقدون بأنّ (العلمانية) مصطلح يختصّ بالدين لا السياسة . و أقول بشكل واضح ، هؤلاء أخطر على نهضة شعوبنا من المتطرّفين دينيًّا . هؤلاء مجموعة من المرتزقة الذين (امتهنوا) هذه الأفكار دون وعي أو معرفة ثقافيّة تراكميّة . فتراهم يتقوّلون باسم الحريّات والعلمنة ما ليس فيهما . هؤلاء الذين يبحثون عن شهرة في مجتمعاتهم المكبوتة فتراهم يتزلّفون إلى آلهة قومهم حين يصبح الخطر جدّيًا ويذهبون كالنّعاج مبادرين إلى الصّلاة مع القطيع .. ! !

المعوّقون فكريًّا الذين يتحدّثون عن أنّ التاريخ يعيد نفسه و أنّ ما جرى في (أوربّا) من تنوير و حركات انعتاقيّة هو ما سيجري في منطقتنا المظلومة ؛ أقول لهم (مالكم كيف تحكمون؟) وهل تستوي شعوب أوربّا التي قدّمت على مذبح الفكر وصلبان العلم الألوف ممّن أعدمتهم بربريّة الكنيسة باسم (الهرطقة) و (السّحر) و (الشّعوذة) . هل يستوون مع ما نمرّ به من جُبن وتملّق للحاكم و السّلطة الدينيّة ؟ ماذا قدّمنا من تضحيات لأجل الفكر ؟ إلاّ إذا كنتم ترون في سذاجة فكرة (الحلاّج) شيئًا لا ترونه في المتصوّفين المعاصرين ممّن يمكنكم مشاهدتهم جوار ضريح (عبد القادر الجيلاني) في (بغداد) حاليًّا . أو ربّما تغرّكم العبارات الرّنانّة كـ (الشّارح الكبير ابن رشد) ؛ فيما هو – رغم اهتمامي به – منافق فلسفيّ من طراز متطوّر و متملّق للبلاط . ولم يقل أكثر من ربع الحقيقة الممكنة وقتذاك . وأهميّته الفلسفيّة تنبع من أهميّة (أرسطو) وليس بسبب نتاجه الشّخصيّ فقط .

لذا فإنّني والله – بكسر الهاء – أسيفٌ ممّا أرى . و لست أخشى إلاّ من مرتزقة العلمانية و الليبراليّة الذين ينشطون لتشويه تلك الأفكار النّبيلة و لتنفير الشّعوب منها . وهم موجودون في مراكز و مؤسّسات ، و يتظاهرون بالمعاناة من الاضطهاد و ما إلى ذلك .. و لكنّهم كما قال العارف الحقّ (علي الوردي) :

(ظنّ بعض الأغبياء ممّن تعلّموا شيئًا من مبادئ العلم أنّ المتنبّي يقصدهم في قوله :

ذو العقل يشقى بالنّعيم بعقله ⁎⁎⁎ وأخو الجهالة بالشّقاوة ينعمُ

ولذا وجدناهم يضعون أكفّهم على جباههم ، و يطلقون الحسرات الطويلة قائلين عن أنفسهم : أنّهم أشقياء بسبب أفكارهم العالية ، و علمهم الغزير) (111) .

هذا تمامًا ما يفعله المدسوسون على نظافة الفكرة . لا يريدون أكثر من الظّهور ، ولا يهتمون لمنطق العرفة بقدر ما يعنيهم الحفاظ على كلّ ما لديهم ، بالإضافة إلى ركوب الموجة . فترى واحدهم يدعو إلى فهم الجوانب التنويريّة في الدين الإسلامي الحنيف وتطبيقها على أرض الواقع المعاصر . و آخر يدعو إلى تحالف مبارك بين المسيحيّة والإسلام للنهوض بالأمم المظلومة . فيا ليت شعري هل يعلم هذا الدّاعي بأنّه سيدفن الأمم و إلى الأبد بهكذا تحالف مرعب .. ؟!

ولن ننسى كم غرّنا البعض بشجاعتهم يومًا ؛ فقال معاصروهم هذا هو سيّد الخلاص الذي سيحملنا إلى ضفّة النّجاة . و إذا بالمخلّص بعد أن بلغ من الكبر عِتيّا ؛ يتمنّى أداء (العُمرة) .. ناهيك عمّا قام به قبلها إذ سمّى مؤسّس الوهابيّة (محمّد بن عبد الوهاب) رمزًا تنويريًّا وعَلَمًا نهضويًّا (112) .. ! !

خاتمة

لو كان لي في الحلم حياة أو نصيب في عيش كريم فلن أحلم إلاّ بوطني (العراق) . ولكنّني أريد لهذا الوطن – ومعه بقيّة الأمم – أن تتخلّص من أمراضها الاجتماعيّة التي هي في الأساس موروثاتٌ فكريّة قابلة للنقد لو اتّفقوا على مبدأيْ الحريّة و مصلحة الوطن العُليا . يجب أن نمجّد هذه الحريّة – ديكارتيًّا – بأن نجعلها **(الشيء الوحيد الذي نستطيع أن نفاخر به)** (113) .

لقد حاولت في هذا المقال أن أعبّر عن نفسي و أن أدعو – من باب الالتزام الأخلاقي آنف الذكر – القارئ إلى التفكير . لا غاية لي بأن يقتنع الآخرون بما أكتب و ليس هذا مهمًّا في المرحلة الحاليّة التي أعتبرها ح سّاسة .. إنّما غايتي التفكير و الشّك بما يجري و ما قيل و ما يقال و ما سيقال . يجب أن يخرج الجميع بآراء تتعارض أو تتّفق مع الموروث ولكنّها نتيجة دراسة و ليست عمليّة تلقينيّة تعتمد على تنويم الدماغ . يجب على الجميع – أو الرّاغب منهم – توجيه سؤالين محدّدين و بصوت عالٍ : لماذا ؟ و كيف نتأكّد ؟

وليس لدي ما أضيفه سوى أنّي غير معنيٍّ بوجود مفهوم **(الله)** من عدمه ، ولا أشعر بأنّ الأمر يستحقّ منّي الاهتمام و التفرّغ بشكل شخصيٍّ . و لكنّني أؤمن بـ **(اللاّدينيّة)** معتقدًا فكريًّا صالحًا تتبنّاه الدول والمجتمعاتُ لخلاصها . و أؤمن بـ **(العلمانيّة)** منهجًا سياسيًّا من الممكن أن يكون نافعًا في مراحل معيّنة و لكنّه ليس حلاًّ نهائيًّا بل يجب أن يكون هناك فصل ثانٍ بين الدين و الحياة الاجتماعيّة أيضًا وليس السياسيّة فقط ، و أن ينحسر التأثير الديني في دور العبادة والصّلاة لا غير . و أؤمن بـ **(الليبراليّة)** نمطًا اجتماعيًّا يجعل تقبّل الاختلاف و التّسامح بين أفراد المجتمع الواحد داخل الوطن الواحد – أو مع أوطان مجاورة – ممكنًا . و أؤمن بـ **(الاشتراكيّة)** نظامًا اقتصاديًّا يمكنه تحقيق الرّفاه للشّعوب ، دون أن ينازع هذا النظام أصحابَ الثروة في ثرواتِهم . إنّها مزاوجة – فيما أرى – بين العلميّة والديمقراطيّة .. لو تمّ بذرها و رعايتها سنحصد الثمرة الأثمن ؛ ألا وهي **(العدالة الاجتماعيّة)** . و أؤمن بـ **(اليسار)** فكرةً ثوريّةً تعشق الوطن لأجل الوطن وليس من أجل إله الوطن أو دين الوطن أو انتماء الوطن .

أؤمن بكلّ هذا و أعرف بأنّها تشكيلة صعبة التنفيذ . ولكنّني أنطلق من فكرة أنْ لا منهجًا صالحًا على الدوام ؛ لذا تجب مزاوجته أو توأمته سياميًّا مع مناهج أخرى ليتماشى و المتغيّرات . هذا ما أؤمن به .. وهذا ما حاولت قوله في كلّ ما كتبت من قصائد أو مقالات أو قصاصات . ولن أقف عند خلل هنا أو مراجعة هناك ؛ بل سأمضي لحال سبيلي دون انتظار ما قد يكون .. فالعاقل من نظر أمامه كما قالتِ العرب .

لقد كانت كتابةُ هذا المقال ولقُرابة الشّهر أمرًا ماتعًا . نعم ؛ لقد أمتعتني و أفادتني و جعلتني أعود إلى أمور ظننتُ يومًا أنّي قد حسم تها . لقد وطّدتْ إيماني بقيم عُليا جديدة . و فتحتْ أمامي مجالاً للتساؤل و الإجابة . لقد تحدّثتُ عبر هذه الكتابة عن أمورٍ بالغة الحساسيّة في ذهن البشريّة مُجتهدًا في الإنصاف ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا . قد أكون شدّدتُ على نقاط معيّنة وتهاونت في أُخَر .. ولكنّي في المحصلة لم أترك للمداهنة مدخلاً إلى قولي و رأيي . لم أركب موجة (السّخرية) اللاّذعة من كلّ شيء لأجل إثبات قصور دين معيّن و السّكوت على فشل الأديان الأخرى . و لم أتردّد عن توجيه الأوصاف القاسية إلى أشخاص الأنبياء بسبب سلوكيّاتهم ولستُ نادمًا ؛ بل هذا م ا يجب أن يُقال في كلّ حين . وأيضًا ؛ لم أحمل فكري و آرائي على محمل (الصّخب) الذي أثبت فشله في كتابات سابقة لكتّاب آخرين . لقد حاولتُ أن أكون (شيئًا) نافعًا لمن حولي ومتابعي مقالاتي ، (شيئًا) صالحًا لتحريك مخيّلاتهم . وحسبي القلّة التي أرسلت شاكرةً جَهدي أو ناقمة عليه أو طالبةً التّوسّع أكثر ؛ فهذا هو العدل من وجهة نظري .. أن نقول ثُمّ نصمت بعدها ليقول الآخرون آراءهم . و قد يباغتنا متابع : ما قلته غير منطقيٍّ يا سَعْدُ ! فنردُّ عليه والشّقاء يسكُنُنا : ماذا بقي من المنطق يا صديقي ؟ نردّ عليه مستحضرين (القصيمي) : **(ما رأيتُ الذّباب على طعام أعمىً إلاّ و أخذتني الرّجفة رثاءً للمنطق الذي يؤمن بحكمةِ وأخلاقيّةِ هذا الكون)** (114) .

الهوامش

- (1) فريدريك نيتشه ، هكذا تكلّم زرادشت ، ترجمة : فليكس فارس ، الطبعة الأولى ، الأسكندريّة ، مطبعة جريدة البصير ، 1938 ، الصفحة 65 .
- (2) للاستزادة انظر : بيتر سلوترdايك ، الإنجيل الخامس لنيتشه ، ترجمة : علي مصباح ، الطبعة الأولى ، كولونيا ، دار الجمل ، 2003 .
- (3) محمّد الماغوط ، اغتصاب كان و أخواتها ، تحرير : خليل صويلح ، الطبعة الأولى ، دمشق ، دار البلد ، 2002 ، الصفحة 109 .
- (4) للاستزادة انظر : طه حسين ، في الشعر الجاهلي ، الطبعة الأولى ، سوسة ، دار المعارف ، 1997 ، مبحث (الشعر الجاهلي واللّغة) .
- (5) سليمان مظهر ، قصّة الديانات ، الطبعة الثّانية ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 2002 ، الصفحة 320 .

- (6) أحمد ايبش ، التلمود .. كتاب اليهود المقدّس ، الطبعة الأولى ، دار قتيبة ، دمشق ، 2006 ، الصفحات 83 – 85 .
- (7) القرآن ، [الأنعام : 76 – 79] و [الأنبياء : 51 – 70] .
- (8) للاستزادة انظر : سيغموند فرويد ، موسى و التّوحيد ، ترجمة : جورج طرابيشي ، الطبعة الرّابعة ، بيروت ، دار الطّليعة ، 1986 .
- (9) ول ديورانت ، قصّة الفلسفة ، ترجمة : فتح الله محمّد المشعشع ، الطبعة الرّابعة ، بيروت ، مكتبة المعارف ، 1982 ، الصفحة 356 .
- (10) أحمد ابيش ، التلمود .. كتاب اليهود المقدّس ، الطبعة الأولى ، دمشق ، دار قتيبة ، 2006 ، الصفحات 160 – 166 .
- (11) انظر : العهد القديم ، سِفر الملوك الأوّل [12 : 26 – 29] و [13: 32] و [16 : 24] .
- (12) للاستزادة انظر : سليمان مظهر ، قصّة الديانات ، الطبعة الثّانية ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، 2002 ، الصفحات 341 – 353 .
- (13) كتاب (التوراة) لـ مصطفى محمود على سبيل المثال .
- (14) معروف الرّصافي ، الشخصيّة المحمّديّة ، الطبعة الأولى ، كولونيا ، دار الجمل ، 2002 ، الصفحة 696 .
- (15) أحمد ابيش ، التلمود .. كتاب اليهود المقدّس ، الطبعة الأولى ، دمشق ، دار قتيبة ، 2006 ، الصفحات 26 – 27 .
- (16) للاستزادة انظر : خزعل الماجدي ، متون سومر – الكتاب الأوّل ، الطبعة العربيّة الأولى ، عمّان ، الدّار الأهليّة ، 1998 ، الصفحات 11 – 25 .
- (17) مجموعة باحثين ، شريعة حمورابي ، ترجمة : أسامة سراس ، الطبعة الثّانية ، دمشق ، دار علاء الدين ، 1993 ، الصفحة 14 .

- (18) قاسم الشوّاف ، ديوان الأساطير – الكتاب الأوّل (أناشيد الحب السّومريّة) ، إشراف : أدونيس ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار السّاقي ، 1996 ، الصفحات 185 – 220 .
- (19) انظر : قصيدتي (الفداء) على سبيل المثال .
- (20) شارل جنيبير ، المسيحيّة ، ترجمة : عبد الحليم محمود ، الطبعة الأولى ، بيروت ، منشورات المكتبة العصريّة ، الصفحة 48 .
- (21) يُجمع المؤرّخون على أنّ (هيرودوس الكبير) توفّي في عام 4 ق . م ، لذا فمن الطبيعي أنّه ذبح أو هدّد بذبح المواليد الجدد في (بيت لحم) قبل وفاته . وتعزو كتب التاريخ هذا الخلل إلى أنّ الكاهن (ديونيسيوس الصّغير) قد أخطأ في حساب تاريخ ميلاد المسيح حين استخرجه في القرن السادس الميلادي .
- (22) إ . س . سفينسيسكايا ، المسيحيّون الأوائل و الإمبراطوريّة الرومانيّة ، ترجمة : حسّان مخائيل إسحق ، الطبعة الثّانية ، دمشق ، دار علاء الدين ، 2007 ، الصفحات 70 – 71 .
- (23) انظر سجلّ نسب (المسيح) : [متّى . 1 : 1 – 17] و [لوقا . 3 : 23 – 38] .
- (24) بالإضافة إلى الأناجيل القانونيّة الأربعة ؛ فإنّ (القرآن) يتناول حياة (المسيح) عبر أناجيل لا تعترف بها الكنيسة كـ (إنجيل توما) على وجه الخصوص . وفي الإسلام بشكل عام ولعٌ بفكرة أنّ (المسيح) بشّر بـ (محمّد) ، وفي هذا الشأن لا يتورّع بعض القوم من الاستشهاد بإنجيل متهافت لغةً و أسلوبًا ؛ يُدعى (إنجيل برنابا) .
- (25) إتين هنري جلسون ، روح الفلسفة المسيحيّة ، ترجمة : إمام عبد الفتّاح إمام ، الطبعة الثّالثة ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، 1996 ، الصفحة 203 .
- (26) فراس السوّاح ، الوجه الآخر للمسيح ، الطبعة الأولى ، دمشق ، دار علاء الدين ، 2004 ، الصفحة 8 .
- (27) شارل جنيبير ، المسيحيّة ، ترجمة : عبد الحليم محمود ، الطبعة الأولى ، بيروت ، منشورات المكتبة العصريّة ، الصفحة 43 .
- (28) إ . س . سفينسيسكايا ، المسيحيّون الأوائل و الإمبراطوريّة الرومانيّة ، ترجمة : حسّان مخائيل إسحق ، الطبعة الثّانية ، دمشق ، دار علاء الدين ، 2007 ، الصفحة 74 .
- (29) شارل جنيبير ، المسيحيّة ، ترجمة : عبد الحليم محمود ، الطبعة الأولى ، بيروت ، منشورات المكتبة العصريّة ، الصفحة 83 .
- (30) انظر : [خروج . 21] و [لاويين . 15] و [تثنية . 25] .
- (31) انظر على سبيل المثال : الإغواء الأخير للمسيح لـ كازنتزاكيس ، شيفرة دافنتشي لـ دان براون .
- (32) انظر : قصيدتي (مسدٌ نما فوق اللّسان) .
- (33) انظر : المسألة اليهوديّة لـ كارل ماركس .
- (34) انظر الخبر كاملاً بالانكليزيّة (Did Jesus walk on water) عبر [BBC NEWS]
.

- (35) إ . س . سفينسيسكايا ، المسيحيّون الأوائل و الإمبراطوريّة الرومانيّة ، ترجمة : حسّان مخائيل إسحق ، الطبعة الثّانية ، دمشق ، دار علاء الدين ، 2007 ، الصفحة 81 .
- (36) سيّد القمني ، الأسطورة و التراث ، الطبع ة الثّالثة ، القاهرة ، المركز المصري لبحوث الحضارة ، 1999 ، الصفحة 121 .
- (37) إ . س . سفينسيسكايا ، المسيحيّون الأوائل و الإمبراطوريّة الرومانيّة ، ترجمة : حسّان مخائيل إسحق ، الطبعة الثّانية ، دمشق ، دار علاء الدين ، 2007 ، الصفحة 76 .
- (38) مسألة صلب المسيح لـ أحمد ديدات على سبيل المثال .
- (39) للاستزادة انظر : مجموعة مؤلّفين ، الأصول الوثنيّة للمسيحيّة ، ترجمة : سميرة عزمي الزّين ، الطبعة الأولى ، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانيّة ، 1991 .
- (40) فريدريك نيتشه ، عدوّ المسيح ، ترجمة : جورج ميخائيل ديب ، الطبعة الثّانية ، اللاّذقيّة ، دار الحوار ، 2005 ، الصفحة 85.
- (41) علي الوردي ، مهزلة العقل البشري ، الطّبعة الثّانية ، بيروت ، دار كوفان ، 1994 ، الصفحة 45 .
- (42) انظر : لسان العرب لـ ابن منظور تحت الجذر (حمد) .
- (43) كارل بروكلمان ، تاريخ الشّعوب الإسلا ميّة ، ترجمة : نبيه أمين فارس | منير البعلبكي ، الطبعة الخامسة ، بيروت ، دار العلم للملايين ، 1968 ، الصفحة 39 .
- (44) سيّد القمني ، إسلاميّات : الحزب الهاشمي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، المركز المصري لبحوث الحضارة ، 2001 ، الصفحة 9 .
- (45) أبو طالب بن عبد المطّلب ، ديوان أبي طالب ، تحقيق : محمّد حسن آل ياسين ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الهلال ، 2000 ، الصفحة 99 .
- (46) معروف الرّصافي ، الشخصيّة المحمّديّة ، الطبعة الأولى ، كولونيا ، دار الجمل ، 2002 ، الصفحات 174 – 197 .
- (47) عبد الله محمّد الأمين النعيم ، الاستشراق في السّيرة النّبويّة ، الطبعة الأولى ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، 1997 ، الصفحة 70 .
- (48) إبراهيم فوزي ، تدوين السّنّة ، الطبعة الثّانية ، دار رياض الريّس ، لندن ، 1995 ، الصفحة 58 .
- (49) انظر : صحيح البخاري . كتاب فضائل الصحابة .
- (50) انظر : مقدّمة كتاب الإصابة في معرفة الصّحابة لـ الحافظ ابن حجر العسقلاني .
- (51) علي الوردي ، مهزلة العقل البشري ، الطّبعة الثّانية ، بيروت ، دار كوفان ، 1994 ، الصفحة 246 .
- (52) أحمد حسين يعقوب ، نظرية عدالة الصّحابة ، الصفحة 60 .

- (53) علي بن أبي طالب ، نهج ال بلاغة ، شرح : محمّد عبده ، الجزء الثالث ، الطبعة الخامسة ، بيروت ، دار الكتب العلميّة ، 2003 ، الصفحة 326 .
- (54) للاستزادة في هذا الشأن ؛ انظر الكتب الآتية : محمود أبو ريّة ، أضواء على السنّة المحمّديّة ، الطّبعة السّادسة ، القاهرة ، دار المعارف ، 1994 ، الصفحات 193 – 198 . عبد الصّمد شاكر ، نظرة عابرة إلى الصّحاح السّتة ، الصفحات 42 – 43 . صالح الورداني ، الخدعة : فصل الصّحابة ، الصفحة 97 .
- (55) انظر : كشف الظنون لـ حاج خليفة ، الجزء الأوّل ، الصفحة 641 .
- (56) نُقل الخبر في حينها عبر أهم وكالات الإعلام ومن ضمنها (Reuters) .
- (57) انظر تفسير الآية في جامع البيان لـ الطبري .
- (58) انظر تفسير الآية في جامع البيان لـ الطبري | الجامع لأحكام القرآن لـ القرطبي .
- (59) لمن يودّ الاستزادة في هذا الشأن عليه أن يجتهد ويقرأ على أقل تقدير : العهدين (القديم | الجديد) و (التلمود) .
- (60) أدونيس ، النّص القرآني وآفاق الكتابة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الآداب ، 1993 ، الصفحة 20 .
- (61) كارل بروكلمان ، تاريخ الشّعوب الإسلاميّة ، ترجمة : نبيه أمين فارس | منير البعلبكي ، الطبعة الخامسة ، بيروت ، دار العلم للملايين ، 1968 ، الصفحة 47 .
- (62) معروف الرّصافي ، الشخصيّة المحمّديّة ، الطبعة الأولى ، كولونيا ، دار الجمل ، 2002 ، الصفحة 617 .
- (63) انظر تفسير الآية في جامع البيان لـ الطبري .
- (64) انظر تفسير السّورة في جامع البيان لـ الطبري .
- (65) آيات شيطانيّة لـ سلمان رشدي على سبيل المثال . صدرت في عام 1988 . و قد اطّلعتُ على نسخة إلكترونية من الرّواية مترجمة إلى العربيّة و هي ضعيفة في رأيي ولم تشتهر إلاّ لضجّتها التي ساعد عليها المسلمون أنفسهم مثل (الخميني) حين أفتى بهدر دم المؤلّف في عام 1989 .. ثم ألغيت الفتوى بعد عشر سنوات .
- (66) انظر : البداية والنهاية لـ ابن كثير ، الجزء السّابع ، أحداث سنة 17 هـ ، عزل خالد عن قنسرين .
- (67) بالإضافة إلى ما كُتب في سياق المبحث ؛ انظر : سيّد القمني ، إسلاميّات : النسخ في الوحي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، المركز المصري لبحوث الحضارة ، 2001 ، الصفحات 561 – 592 .
- (68) كارل بروكلمان ، تاريخ الشّعوب الإسلاميّة ، ترجمة : نبيه أمين فارس | منير البعلبكي ، الطبعة الخامسة ، بيروت ، دار العلم للملايين ، 1968 ، الصفحة 55 .
- (69) معروف الرّصافي ، الشخصيّة المحمّديّة ، الطبعة الأولى ، كولونيا ، دار الجمل ، 2002 ، الصفحة 617 .

- (70) انظر : البداية والنهاية لـ ابن كثير ، الجزء الثّالث ، غزوة بدر العظمى : يوم الفرقان .
- (71) انظر : البداية والنهاية لـ ابن كثير ، الجزء الرّابع ، سؤال النبي عن سعد ابن الرّبيع هل هو حيّ أم ميّت .
- (72) معروف الرّصافي ، الشخصيّة المحمّديّة ، الطب عة الأولى ، كولونيا ، دار الجمل ، 2002 ، الصفحات 323 – 324 .
- (73) معروف الرّصافي ، الشخصيّة المحمّديّة ، الطبعة الأولى ، كولونيا ، دار الجمل ، 2002 ، الصفحة 319 و الصفحة 322 .
- (74) عبّاس محمود العقّاد ، العبقريّات الإسلاميّة : عبقريّة محمّد ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتبة العصريّة ، 2002 ، الصفحة 35 .
- (75) يوليوس فلهاوزن ، تاريخ الدولة العربيّة ، ترجمة : عبد الهادي أبو ريدة ، الطبعة الثّانية ، القاهرة ، لجنة التأليف والنّشر ، 1968 ، الصفحة 16 .
- (76) كارل بروكلمان ، تاريخ الشّعوب الإسلاميّة ، ترجمة : نبيه أمين فارس | منير البعلبكي ، الطبعة الخامسة ، بيروت ، دار العلم للملايين ، 1968 ، الصفحة 63 .
- (77) سيّد القمني ، إسلاميّات : حروب دولة الرّسول ، الجزء الثّاني ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، المركز المصري لبحوث الحضارة ، 2001 ، الصفحة 541 .
- (78) كارل بروكلمان ، تاريخ الشّعوب الإسلاميّة ، ترجمة : نبيه أمين فارس | منير البعلبكي ، الطبعة الخامسة ، بيروت ، دار العلم للملايين ، 1968 ، الصفحة 46 .
- (79) معروف الرّصافي ، الشخصيّة المحمّديّة ، الطبعة الأولى ، كولونيا ، دار الجمل ، 2002 ، الصفحة 319 و الصفحات 462 – 490 .
- (80) انظر : السّيرة النّبويّة لـ ابن هشام ، الجزء الأوّل ، صفة رسول الله من الإنجيل .
- (81) مقال منسوب إلى العقّاد ، منشور في جريدة الأخبار المصريّة بتاريخ 26|10|1959 .
- (82) السّيرة النّبويّة ، ابن إسحاق ، تحقيق : أحمد فريد المزيدي ، الجزء الثّاني ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلميّة ، 2004 ، الصفحات 404 – 406 .
- (83) ثمّة كتاب لطيف و بسيط حول الملائكة في الأديان الثلاثة .. للاستزادة انظر : أحمد عبد الوهاب ، الملائكة والوحي في اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، 1979 .
- (84) معروف الرّصافي ، الشخصيّة المحمّديّة ، الطبعة الأولى ، كولونيا ، دار الجمل ، 2002 ، الصفحات 145 – 162 .
- (85) سيغموند فرويد ، الحبّ والحرب والحضارة والموت ، ترجمة : عبد المنعم الحفني ، القاهرة ، دار الرّشاد ، الصفحة 44 .
- (86) خورخي بورخيس ، صنعة الشّعر ، ترجمة : صالح علماني ،الطبعة الأولى ، دمشق ، دار المدى ، 2007 ، الصفحة 13 .

- (87) للاستزادة انظر : جورج بوليتزر ، أصول الفلسفة الماركسيّة ، الجزء الأوّل ، ترجمة : شعبان بركات ، بيروت ، المكتبة العصريّة ، الصفحات 22 – 26 .
- (88) محمود درويش ، الأعمال الج ديدة : الجداريّة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار رياض الريّس ، 2004 ، الصفحة 480 .
- (89) انظر : العهد القديم . أسفار : إشعيا | حزقيال | المزامير على سبيل المثال .
- (90) انظر : العهد الجديد . سِفر الرؤيا .
- (91) انظر : كتاب الغيبة ، الطوسي ، الصفحات 159 – 160 .
- (92) انظر : أضواء على عقائد الشّيعة الإماميّة ، جعفر السبحاني ، الصفحة 231 .
- (93) انظر : [أبو داود . كتاب المهدي : 4287] أو [المسند . المجلّد الثّالث : 10706] .
- (94) انظر : [البخاري . كتاب الجهاد والسير . باب قتال اليهود : 2963] أو [مسلم . كتاب الفتن و أشراطة السّاعة : 7522] .
- (95) انظر قصيدتي : لو كانَ لي وطنٌ .
- (96) إ . س . كون ، الجنس من الأسطورة إلى العلم ، ترجمة : منير شحود ، الطبعة الأولى ، اللاّذقيّة ، دار الحوار ، 1992 ، الصفحة 33 .
- (97) سيغموند فرويد ، الحياة الجنسيّة ، ترجمة : جورج طرابيشي ، الطبعة الثّالثة ، بيروت ، دار الطليعة ، 1999 ، الصفحة 45 .
- (98) إ . س . كون ، الجنس من الأسطورة إلى العلم ، ترجمة : منير شحود ، الطبعة الأولى ، اللاّذقيّة ، دار الحوار ، 1992 ، الصفحة 12 .
- (99) بوعلي ياسين ، الثّالوث المحرّم ، الطبعة الثّانية ، بيروت ، دار الطل يعة ، 1978 ، الصفحات 26 – 27 .
- (100) انظر : مجلّة الرسالة ، العدد 995 ، العام 1952 .
- (101) عباس شومان ، مصادر التشريع الإسلاميّ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، الدّار الثقافيّة للنشر ، 2000 ، الصفحة 7 .
- (102) انظر : تفسير الآية في الكشّاف لـ الزّمخشري .
- (103) انظر : تفسير الآية في الجامع لأحكام القرآن لـ القرطبي .
- (104) انظر : تفسير الآية في فتح القدير لـ الشّوكاني .
- (105) انظر : تفسير الآية في الجامع لعلوم القرآن لـ الطّوسي .
- (106) انظر : تفسير الآية في مجمع البيان لـ الطّبرسي .
- (107) انظر : طبائع الاستبداد ، عبد الرّحمن الكواكبي ، فصل : الاستبداد والمجد .

- (108) انظر : دانتي ألفيري ، الكوميديا الإلهيّة ، ترجمة : كاظم جهاد ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر ، 2002 . فصل الجحيم : (الأنشودة 4) و (الأنشودة 28) . رغم أنّ (الأنشودة 28) لم تُترجم صراحةً وقد ألمح المترجم إلى ذلك في الهامش . و هي الخاصّة بمكانة (محمّد) و (علي) في النّص . ولمن يرغب يمكنه الإطّلاع على النصّ الانجليزي .
- (109) انظر : الحلقة الأولى من مقالي (جذور الوهم) .
- (110) الفيلم الوثائقيّ : The Root of All Evil والذي بثّته قناة : Channel 4 . من تقديم البروفيسور : Richard Dawkins .
- (111) علي الوردي ، مهزلة العقل البشري ، الطّبعة الثّانية ، بيروت ، دار كوفان ، 1994 ، الصفحة 31 .
- (112) الشّاعر والمفكّر السّوري (أدونيس) للأسف .. ! !
- (113) جنفياف روديس لويس ، ديكارت والعقلانيّة ، ترجمة : عبده الحلو ، الطبعة الرّابعة ، بيروت | باريس ، منشورات عويدات ، 1988 ، الصفحة 76 .
- (114) عبد الله القصيمي ، كبرياء الكون في مأزق ، الطبعة الثّانية ، بيروت ، الانتشار العربيّ ، 2001 ، الصفحة 251 .

الفهرس